زقـــاق المـــدق

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

- ١ -

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألق يوما فى تاريخ المعزية كالكوكب الدرى. أى قاهرة أعنى؟ . . الفاطمية؟ . . المماليك؟ السلاطين؟ . علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار، ولكنه على أية حال أثر، وأثر نفيس. كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية، تلك العطفة التاريخية، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك، هذا إلى قدم باد، وتهدم وتخلخل، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد. . !

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا، إلا أنه على رغم ذلك ينضج بحياته الخاصة، حياة تتصل فى أعماقها بجذور الحياة الشاملة، وتحتفظ - إلى ذلك - بقدر من أسرار العالم المنطوى.

* * *

آذنت الشمس بالمغيب، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية، ثم يصعد صعودا فى غير انتظام، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة، ثم ينتهى سريعا - كما انتهى مجده الغابر - ببيتين متلاصقين، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة.

سكنت حياة النهار، وسرى دبيب حياة المساء، همسة هنا وهمهمة هناك: يارب يا معين، يارزاق يا كريم. حسن الختام يارب. كل شىء بأمره. مساء الخير يا جماعة.. تفضلوا جاء وقت السمر. اصح يا عم كامل وأغلق الدكان. غير يا سنقر ماء الجوز. أطفئ الفرن يا جعدة. الفص كبس على قلبى. إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا.

بيد أن دكانين ـ دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره ـ يظلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل. ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيا على عتبة دكانه ـ أو حقه على الأصح ـ يغط فى نومه والمذبة فى حجره، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق. هو كتلة بشرية جسيمة، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين، وتتدلى خلفه عجيزة كالقبة، مركزها على الكرسى ومحيطها فى الهواء، ذو بطن كالبرميل، وصدر يكاد يتكور ثدياه، لا ترى له رقبة، فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم، أخفى انتفاخه معالم قسماته. فلا تكاد ترى فى صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة. لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطا عدوا، ولا ينتهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس. قالوا له مرات ستموت بغتة، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك، وراح يقول ذلك مع القائلين، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل؟!

أما صالون الحلو فدكان صغير، يعد فى الزقاق أنيقا، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن. وصاحبه شاب متوسط القامة، ميال للبدانة، بيضاوى الوجه، بارز العينين، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته، يرتدى بدلة، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات!

لبث هذان الشخصان فى دكانيهما فى حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها، وكان آخر من غادرها

السيد سليم علوان، يرفل فى جبته وقفطانه، فاتجه صوب الحانطور الذى ينتظره على باب الزقاق، وصعد إلى فى وقار، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان. ودق الحوذى الجرس بقدمه فرن بقوة، وانحدرت العربة ذات الحصان الواحد إلى الغورية فى طريقها إلى الحلمية، وأغلق البيتان فى الصدر نوافذهما اتقاء البرد، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها، وكاد المدق يغرق فى الصمت، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية، عشش الذباب بأسلاكها، وراح يؤمها السمار. هى حجرة مربعة الشكل، فى حكم البالية، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها، وعدة أرائك تحيط بها. وعند مدخلها كان يكسب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها، وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاى. وعلى كتب من المدخل تربع على الأريكة رجل فى الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه، وجلس جامدا كالتمثال، صامتا كالأموات، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، كأنه فى دنيا وحده. ثم أقبل على القهوة عجوز مهدم، لم يترك له الدهر عضو سالما، يجره غلام بيسراه، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابا. فسلم الشيخ على الحاضرين، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى فى صدر المكان، واعتلاها بمعونة الغلام، ثم صعد الغلام إلى جانبه، ووضع بينهما الربابة والكتاب. وأخذ الرجل يهيىء نفسه، وهو يتفرس فى وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره فى نفوسهم، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبى القهوة سنقر فى انتظار وقلق، ولما طال انتظاره. ولمس تجاهل الغلام له، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ:

ـ القهوة يا سنقر..!

والتفت الغلام نحوه قليلا، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون أن ينبسر، بكلمة، ضاربا عن طلبه صفحا. وأدرك العجوز إهمال الغلام له، ولم

يكن يتوقع غيـر ذلك . ولكن جـاءت نجـدة من السـماء ، إذ دخل فى تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبى ، فقال للغلام بلهجة الآمر :

ـ هات قهوة الشاعر يا ولد . .

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل من أسى :

ـ شكرا لله يا دكتور بوشى . .

فسلم الدكتور عليه ، وجلس قريبا منه . وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقية وقبقابا ! هو دكتور أسنان ، إلا أنه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطب أو أية مدرسة أخرى . اشتغل فى بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان فى الجمالية ، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة ، وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج . وربما كان خلع الضرس فى عيادته المتنقلة أليما موجعا ، إلا أنه رخيص ، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدق طبعا) ، فإذا حدث نزيف ـ وليس هذا بالأمر النادر ـ اعتبر عادة من عند الله ؛ وترك منعه أيضا لله ! . وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين بغير زيادة . وهو يدعى فى الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور ، ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه .

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور ، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته ، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه ، ثم نحاه جانبا . وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبى القهوة معه ، فحدجه بنظرة شزراء وتمتم ساخطا :

ـ قليل الأدب . .

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها ، متحاميا نظرات الغضب التى أطلقها عليه سنقر ، وراح يعزف مطلعا ، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها ، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة ، ثم تنحنح وبصق وبسمل ، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبتدى اليوم نصلى على النبى .

نبى عربى صفوة ولد عدنان .

يقول أبو سعدة الزناتى . .

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول :

ـ هس ! . . ولا كلمة أخرى .

فرفع بصره الذليل عن الربابة فرأى المعلم كرشه ، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين ، فنظر إليه واجما . وتردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه . وأراد أن يتجاهل شره ، فاستدرك منشدا :

يقول أبو سعدة الزناتى . .

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا :

ـ بالقوة تنشد؟! . . انتهى . . انتهى ! ألم أنذرك من أسبوع مضى؟!

فلاح الاستياء فى وجه الشاعر ، وقال بلهجة ملؤها العتاب :

ـ أراك تكثر من «الكيف» ، ثم لا تجد من ضحية سواى !

فصاح المعلم فى غضب وحنق :

ـ رأسى صاح يا مخرف ؛ وأنا أعلم ما أريد أتحسب أنى آذن لك بالإنشاد فى قهوتى إذا ما سلفتنى بلسانك القذر؟!

فخفف الشاعر من لهجته مستوهبا عطف الرجل الغاضب ، وراح يقول :

ـ هذه قهوتى أيضا ، ألست شاعرها لعشرين عاما خلون؟!

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات :

ـ عرفنا القصص جميعا وحفظناها ، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد ، والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبونى بالراديو ، وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله .

فاكفهر وجه الشاعر، وذكر محسورا أن قهوة «كرشة» آخر ما تبقى له من القهوات، أو من أسباب الرزق فى دنياه، بعد جاه عريض قديم. وبالأمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة. عمر طوي ورزق منقطع، فماذا يفعل بحياته؟! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد؟! وماذا يخبىء له المستقبل وماذا يضمر لغلامه؟! اشتد به القنوط، وضاعف قنوطه ما لاح فى وجه المعلم من الجزع والإصرار، فقال:

- رويدك يا معلم كرشة، إن للهلالى لجدة لا تزول، ولا يغنى عنها الراديو أبدا..

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة:

- هذا قولك، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتى. لقد تغير كل شىء!

فقال الشاعر فى قنوط:

- ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبى عليه الصلاة والسلام؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق المركات بقوة وصاح به:

- قلت لقد تغير كل شىء!

وتحرك عند ذلك - لأول مرة - الرجل الجامد الذاهل - ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية فصعد بصره إلى سقف القهوة، وتنهد من الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده، وقال بصوت كالمناجاة:

- آه تغير كل شىء. أجل كل شىء يا ستى! كل شىء تغير إلا قلبى فهو يحب آل البيت عامر..

وطامن رأسه ببطء، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار، فى حركات أخذت فى الضيق رويدا رويدا حتى عاد إلى موضعه الأول من الجمود،

وغرق مرة أخرى فى غيبوبة . ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله ، إلا الشاعر فقد توجه إليه كالمستغيث وقال له برجاء :

ـ يا شيخ درويش أيرضيك هذا؟

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة ، وهنا قدم شخص جديد تعلقت به الأنظار فى إجلال ومودة ، وردوا تحيته بأحسن منها . كان السيد رضوان الحسينى ذا طلعة مهيبة ، تمتد طولا وعرضا ، وتنطوى عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة ، ذو لحية صهباء ، يشع النور من عزة جبينه ، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيمانا ، سار متمهلا خافض الرأس ، وعلى شفتيه ابتسامة تشى بحبه للناس وللدنيا جميعا ، واختار مجلسه على المقعد التالى لأريكة الشاعر . وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه . ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه ، وكان حاول مرارا أن يثنى المعلم «كرشة» عما اعتزمه من الاستغناء عنه دون جدوى . ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره ، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه ، ثم غمر كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى أذنه «كلنا أبناء آدم ، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك ، والرزق رزق الله والفضل فضله» . وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقا ، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه ، ويزداد بصنعه رضا وجمالا . كان يحرص دائما على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل ، أو ينقلب إلى بيته ملوما محسورا . وإنه ليبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع ، وإن كان فى الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق وبضعة أفدنة بالمرج . وقد وجد فيه سكان بيته ـ المعلم كرشة فى الطابق الثالث ، وعم كامل والحلو فى الطابق الأول ـ مالكا طيب القلب والمعاملة ، حتى أنه تنازل عن حقه فى الزيادة التى قررها الأمر العسكرى الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين ، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم . وقد كانت حياته ـ وخاصة فى مدارجها الأولى ـ مرتعا للخيبة والألم ، فانتهى

عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطا طويلا من عمره دون أن يظفر بالعالمية، وابتلى - إلى ذلك - بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال، ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليأس أو كاد، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم، وانطوى على نفسه طويلا فى ظلمة غاشية. ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب، فلم يعد يعرف قلبه كربا ولا هما. انقلب حبا شاملا وخيرا عميما وصبرا جميلا، وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعا، وكان كلما نكد الزمان عنتا ازداد صبرا وحبا، رآه الناس يوما يشيع ابنا من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه، فأحاطوا به مواسين معزين، لكنه ابتسم لهم، وأشار إلى السماء وهو يقول: «أعطى وأخذ، كل شىء بأمره وكل شىء له، والحزن كفر» فكان هو العزاء. ولذلك قال عنه الدكتور بوشى: «إذا كنت مريضا فالمس السيد الحسينى يأتك الشفاء. وإذا كنت يائسا فطالع نور غرته يدركك الرجاء، أو محزونا فاستمع إليه يبادرك الهناء». وكان وجهه صورة من نفسه، فهو الجمال الجليل فى أبهى صوره.

أما الشاعر فقد رضى بعض الرضا، ووجد شيئا من العزاء، وتزحزح تاركا الأريكة، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والكتاب. وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى، وحيا الجلوس متجاهلا المعلم كرشة، ثم ألقى نظرة ازدراء على المذياع الذى كاد العامل يفرغ من تثبيته، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج، وغابا عن الأنظار. ودبت الحياة مرة أخرى فى الشيخ درويش، فأدار رأسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان، وتأوه قائلا:

- ذهب الشاعر وجاء المذياع. هذه سنة الله فى خلقه. وقديما ذكرت فى التاريخ وهو ما يسمى بالإنجليزية (History) وتهجيتها.. (H i s t o r y).

وقبل أن يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد أن أغلقا

دكانيهما. ظهر الحلو أولا، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصفرة، وتبعه عم كامل يتبختر كالمحمل، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا. وسلما على الحاضرين، وجلسا جنبا لجنب، وطلبا الشاى، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملآه ثرثرة. وقال عباس الحلو:

- يا قوم اسمعوا: شكا إلى صديقى عم كامل قال إنه عرضة للموت فى أية لحظة، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به..

فقال بعض الحاضرين متهكما:

- أمة محمد بخير.

وقال البعض الآخر:

- إن له لتركة من البسبوسة تكفى لدفن أمة بأسرها.

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلا:

- لا تفتأ تذكرت الموت. وتالله لتدفننا جميعا بيديك..

فقال عم كامل بصوت برىء كالأطفال:

- اتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين..

واستطرد عباس الحلو قائلا:

- يا قوم: عزت على شكاة عم كامل، ولبسبوسته فضل علينا جميعا غير منكور. فابتعت له كفنا احتياطيا، واحتفظ به فى مكان حريز لساعة لا مفر منها، (والتفت إلى عم كامل قائلا) هذا سر أخفيته عنك، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا على شهودا.

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم، متصنعين الجد، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه، وقالوا: إن هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذى يحبه ويساكنه شقة واحدة، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه. حتى السيد رضوان الحسينى ابتسم راضيا، مما جعل عم كامل ينظر إلى الشاب فى سذاجة ودهشة ويقول متسائلا:

ـ أحق ما تقول يا عباس؟!

فقال الدكتور بوشى :

ـ لا يداخلك الشك يا عم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورأيت الكفن بعينى رأسى ، وهو كفن قيم وددت لو يكون لى مثله . .

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

ـ حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاما مريئا للدود ، فيرعى فى لحمك الهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة . ومعناها بالإنجليزى (Frog) وتهجيتها (frog) .

وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه ، ثم دعا له طويلا ، وانبسط وحمد الله . وارتفع عند ذاك صوت فتى آتيا من الطريق يقول :

ـ مساء الخير . .

واتجه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسينى . كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى فى العشرين فى مثل لون أبيه الضارب إلى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوة والنشاط ، كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلونا خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلا ، تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطانى . وكان ذاك ميعاد عودته من «الأرنس» كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الاعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة ، ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله .

* * *

ساد الظلام الزقاق إلا ما يبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفئ واحدا فى إثر واحد .

وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومى، إلا الشيخ درويش فقد أغرق فى ذهوله، وعم كامل مال رأسه على ثدييه وراح فى سبات. وظل سنقر على نشاطه، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق، والمعلم «كرشة» يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة. وتقدمت جحافل الليل، فغادر السيد رضوان الحسينى القهوة إلى بيته. وتبعه بعد قليل الدكتور بوشى إلى شقته فى الدور الأول من البيت الثانى. ثم لحق بهما الحلو وعم كامل. وأخذت المقاعد تخلو تباعا، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة: المعلم والصبى والشيخ درويش. وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم «كرشة». وصعدوا جميعا إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان، وتحلقوا المجمرة، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا برقة:

انتصف الليل يا شيخ درويش..

فانتبه الشيخ إلى صوته، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبته ونهض قائما واضعا قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملا، والظلمة ثقيلة، والطرق والدروب خالية مقفرة، فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له ولا غاية، وغاب فى الظلمة.

❊ ❊ ❊

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا فى إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرس لغة إنجليزية!.. وقد عرف بالاجتهاد والنشاط، وأسعفه الحظ أيضا فكان رب أسرة سعيدة. ولما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية، فاستحال كاتبا بالأوقاف، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة، وعدل مرتبه على هذا الأساس، كان من الطبيعى أن يحزن الرجل

لمصيره حزنا عميقا وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حينا، ويكتمها - مقسورا مغلوبا على أمره - أحيانا. ولقد سعى كل مسعى، وقدم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال وكثرة العيال، دون جدوى. ثم سلم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت. واشتهر أمره في الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثر، لا يكاد يمضى يوم من حياته دون شجار أو اصطدام، كبير الاعتداد بنفسه والتحدى للآخرين. وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف - وكثيرا ما يحدث - تعالى استكبارا، وخاطب خصمه بالإنجليزية، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب، صاح به فى ازدراء شديد «تعلم أولا ثم خاطبنى!». وكانت أنباء شجاره وعناده تتصل برؤسائه أولا فأول وكانوا يتسامحون معه، عطفا عليه من ناحية، وتحاميا لشره من ناحية أخرى، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات، وخصم يوم أو يومين، ولكنه إزداد بكرور الأيام صلفا، حتى تراءى له يوما أن يحرر خطاباته المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل. وكان يقول فى تسويغ ذلك أنه موظف فنى لا كغيره من الكتاب. وتعطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة، ولكن المقدر كان أسرع من حزم المدير، فطلب الرجل يوما مقابلة وكيل الوزارة، ودخل درويش أفندى - كما كان وقتذاك - حجرة الوكيل فى تؤدة ووقار، وحياه تحية الند للند، وبادره قائلا بثقة ويقين:

- يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رجله.

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عما يريد، فاستدرك قائلا بوقار وجلال:

- أنا رسول الله إليك بكادر جديد.

هكذا ختمت حياته بالأوقاف. وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التى كان واحدا منها. هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها، ولم يستبق من آثار الماضى جميعا إلا نظارته الذهبية. ومضى فى عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوي. ودلت حياته على أن بعض الناس

يستطيعون أن يعيشوا فى هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين، ثم لا يجدون هما ولا كربا ولا حاجة. ولا جاع يوما ولا تعرى ولا شرد. وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها. وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعا صارت بيتا له، وإذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه، وإذا كان قد خسر الأهل والاصدقاء فالناس جميعا انقلبوا له أهلا. يبلى الجلبات فيأتيه جلباب جديد، ويتمزق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد، ولا يحل مكانا حتى يرحب به ناسه. وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه ـ على ذهوله ـ إذا غاب عن القهوة يوما. ومع ذلك فلم يكن يأتى شيئا مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب. فهو إما ذاخل صامت، أو مرسل القول كما يجب لا يدرى أنى يكون موقعه من النفوس. بيد أنه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا، ويقولون عنه إنه ولى من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحى باللغتين العربية والإنجليزية.

ـ ٢ ـ

نظرت إلى المرآة بعين غير ناقدة، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا، فعكست المرآة وجها نحيلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب. وجعلت تعطفه يمنة، وتعطفه يسرة، وأصابعها تنسق ضفيرتها، مغمغمة بصوت لا يكاد يسمع «لا بأس، جميل، وأيم الله جميل». والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما، والدنيا لا تدع وجها سالما نصف قرن من الزمان. أما جسمها فنحيل، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق، وأما الصدر فأمسح، بيد أن فستانا حسنا يستره. هذه هى الست سنية عفيفى صاحبة البيت الثانى بالزقاق، حيث يسكن الدكتور بوشى طابقه الأول، وفى ذلك اليوم كانت تأخذ أهبتها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها أم حيدة. ولم يكن من عادتها الإكثار من زيارة أحد، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتحصيل

الأجرة، إلا أن باعثا جديدا دب فى أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة. وهكذا غادرت شقتها، ونزلت السلالم، متمتمة برجاء «اللهم حقق الآمال»، وقدت بكفها المعروفة ففتحت لها حيدة. واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة، وقادتها إلى حجرة الضيوف، ثم ذهبت تدعو أمها. كانت الحجرة صغيرة، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين، وفى الوسط خوان باهت عليه نافضة سجاير، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة. ولم يطل بالمرأة الانتظار، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيرت جلباب البيت، فسلمتا بشوق، وتبادلتا قبلتين، وجلستا جنبا لجنب، وأم حميدة تقول:

ـ أهلاً.. أهلاً.. زارنا النبى يا ست سنية.

كانت أم حميدة ربعة ممتلئة فى الستين، ولكنها معافاة قوية، جاحظة العينين، مجدورة الخدين، ذات صوت غليظ قوى النبرات، فإذا تحدثت فكأنها تزعق، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزال، ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه، وقد ينذر بالخطر. ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنها على كلتا الحالتين لقادرة. وكانت بحكم وظيفتها ـ خاطبة وبلانة ـ عميقة الملاحظة كثيرة الكلام. بل كانت لسانا لا يكف ولا يمسك، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحى أو بيت من بيوته، فهى مؤرخة راوية لأخبار السوء ـ على الغالب ـ ومعجم للمنكرات. وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضيفة، وتطنب فى الثناء عليها، وتروى لها نتفا من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة: أما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة؟.. هى كسابقاتها، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته. وحسنية الفرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه. والسيد رضوان الحسينى الطيب الورع زجر زوجه زجرا شديدا، لماذا يعاملها هذه المعاملة ـ وهو الرجل الطيب ـ إن لم تكن شريرة خبيثة!..

الدكتور البوشى احتك بفتاة صغيرة فى المخبأ فى آخر غارة وضربه رجل محترم. كريمة الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ أبوها القسم. طابونة الكفراوى تبيع عيشا مخلوط سرا، إلخ إلخ.

أصغت الست سنية عفيفى بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذى جاءت من أجله. وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختماره بنفسها مهما كلفها الأمر. بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تتهيأ لها فرصة مواتية. وقد تهيأت هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة:

ـ وكيف الحال يا ست سنية؟

فعبست قليلا وقالت:

ـ الحق أنى تعبة يا ست أم حميدة.

فرفعت أم حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت:

ـ تعبة؟!.. كفى الله الشر!

وأمسكت ست سنية ريثما تضع حميدة ـ وكانت دخلت الحجرة فى هذه اللحظة ـ صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت، ثم قالت بامتعاض:

ـ تعبة يا ست أم حميدة. أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين؟.. تصورى وقوف امرأة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة.

وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات أسيفة:

ـ صدقت يا ستى.. كان الله فى عونك.

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت: لماذا تكثر المرأة من ترداد هذه الشكوى؟.. وذكرت أنها أعادتها على سمعها مرات!.. بل ذكرت أن هذه ثانى أو ثالث مرة تزورها فى غير أول الشهر. وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها، وكانت فى أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى، فصممت أن تسير الزائرة من وراء وراء، فقالت بخبث:

ـ هذه إحدى شرور الوحدة . أنت امرأة وحيدة يا ست سنية . فى البيت وحــدك ، وفى الطريق وحــدك ، وفى «الفــراش» وحــدك ، ألا قطعت الوحدة . . وسرت الست سنية بحديث المرأة الذى كأنه يلبى خواطرها ، وقالت وهى تخفى سرورها به :

ـ وما عسى أن أصنع ؟ . . أقاربى ذوو أسر ، وأنا لا ارتاح إلا فى بيتى . والحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعا .

وكانت أم حميدة تلحظها بمكر ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :

ـ الحمد لله ألف مرة ، ولكن بالله خبرينى لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل . . ؟!

فخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجها لوجه حيال ما تريد ، ولكنها تنهدت بإنكار وقالت بتأفف متكلف :

ـ حسبى ما ذقت من مرارة الزواج . . !

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب دكان روائح عطرية ، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق ، فأساء الرجل معاملتها ، وأشقى حياتها ، ونهب مالها ، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام . ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنها ـ على حد قولها ـ كرهت حياتها الزوجية .

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به إهمال الجنس الآخر لها ، فقد كرهت الحياة الزوجية حقا ، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها ، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها عهدا طويلا ، ثم أنسيت تلك العاطفة بكرور الزمن ولم تكن تتردد عن تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب . وجعلت تراود الأمل حينا بعد حين ، حتى طال به الأمد ، فغلبها القنوط ، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب ، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هى . ولما كان من الضرورى أن يوجد فى حياة الإنسان شىء تنعقد حوله آماله ، شىء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية أو

سخيفة، فقد وجدت ضالتها كذلك. ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينقص امرأة عازبة مثلها، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة. وقد كانت فى الأصل تميل قليلا نحو الحرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد ذاك الميل القديم وتقويه وتتقوى به. وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة فى صندوق عاجى صغير أخفته فى أعماق صوان ملابسها، ووزعتها رزما من ذوات الخمس والعشر، تتسلى بمشاهدتها ومعاودة عدها وترتيبها. ولما كانت الأوراق خرسا لا كالنقود المعدنية فقد أمنت الأخطار، ولم يدر بها أحد من شطار المدق على شدة حساسيتهم. وجدت فى حياتها المالية عزاء. وانتحلت منها اعتذارا لعزوبتها، وقالت لنفسها إن أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم، وبأن يضيع عليها فى غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال، ومع ذلك فما كاد يتسرب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الأعذار والمخاوف جميعا. وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول العجيب، سواء عن قصد أو عن غير قصد، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز، ففكرت فى الأمر على أنه ممكن التحقيق، وسرعان ما استولى على إرادتها، فتدافعت إلى طاعته لا تلوى على شىء. ظنت يوما أنها نسيت الزواج. فإذا بالزواج أملها المنشود الذى لا يغنى عنه شىء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة. وجعلت تتساءل فى جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء؟.. كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة؟!.. وقالت إن هذا هو الجنون، وحملت زوجها المرحوم تبعته، وصممت على أن تكفر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن.

وأصغت الخاطبة إلى تأففها المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها: «لا يجوز على مكرك يا مرة». ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم:

- لا تغالى يا ست سنية. إذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب.

فقالت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة:

ـ لا ينبغى لعاقل أن يعاند الحظ إذا تجهم .

فاعترضتها أم حميدة قائلة :

ـ ما هذا الكلام يا ست العاقلات ! . . كفاك وحدة كفاك .

فدقت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع :

ـ يا خبر . أتريدين الناس على أن يرمونى بالجنون ؟ !

ـ أى أناس تعنين ؟ . . إن أكبر منك يتزوجن كل يوم .

فتضايقت من «أكبر منك» وقالت بصوت منخفض :

ـ لست من الكبر كما تظنين . . لعن الله الهم .

ـ ما قصدت هذا يا ست سنية . وما أشك فى أنك مازلت فى حدود الشباب ، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة .

فارتاحت الست ، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يساق إلى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة ، فتساءلت بعد تردد :

ـ ألا يعيبنى أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة ؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة : «لماذا قصدتينى إذا يا مرة ؟» . ثم خاطبت الست قائلة :

ـ كيف يعيبك ما هو شرع وحق ! . . أنت ست عاقلة شريفة ، والكل يشهد لك بذلك . والزواج نصف الدين يا حبيبتى ، وربنا شرعه حكمة ، وأمر به النبى عليه الصلاة والسلام .

فقالت سنية بإيمان :

ـ صلى الله عليه وسلم .

ـ كيف لا يا حبيبتى ! . . نبى عربى ويحب عبيده !

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر ، وثمل فؤادها سرورا ، فقالت وهى تستخرج سيجارتين من علبتها :

ـ ومن يرضى بالزواج منى؟

فثنت أم حميدة سبابة يسراها، ولصقتها بحاجبها، وقالت باستنكار:

ـ ألف رجل ورجل.

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت:

ـ رجل واحد يكفى..

فقالت أم حميدة بيقين:

ـ الرجال جميعا يحبون الزواج فى أعماقهم. ولا يكاد يشكو الزواج إلا المتزوجون. وكم من رجل عازب راغب عن الزواج، ما إن أقول له: «عندى عروس لك!». حتى تدب فى عينيه اليقظة، ويغلبه الابتسام، ويسألنى فى لهفة لا تخفى: «حقا.. من!.. من؟». الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح، وهذه حكمة ربنا.

فهزت الست سنية رأسها فى ارتياح وقالت:

ـ جلت حكمته!

ـ نعم يا ست سنية، لذلك خلق الله الدنيا. كان فى وسعه أن يملأها رجالا فحسب، أو نساء فحسب، ولكن خلق الله الذكر والأنثى، ومنحنا العقل كى نفهم مراده، فلا محيد عن الزواج.

فابتسمت الست سنية عفيفى وقالت برقة:

ـ كلامك كالسكر يا ست أم حميدة!

ـ حلى الله دنياك، وآنس قلبك بالزواج الكامل.

فتشجعت الست وقالت:

ـ إن شاء الله، وبفضلك.

ـ أنا امرأة ـ بحمد الله ـ مباركة. زيجاتى لا انفصام لها. ياما عمرت بيوتا، وأنجبت أطفالا، وأسعدت قلوبا، فليكن اعتمادك على الله وعلى.

ـ جزاؤك لن يقدر بمال.

فقالت أم حميدة فى سرها : «لا . . لا يا مرة ، ينبغى أن يقدر بمال ، وبمال كثير . هلمى إلى صندوق التوفير وأعطينى ، وكفاك تقتيرا» . ثم قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الأمور :

ـ أظنك تفضلين رجلا متقدما فى السن؟ !

لم تدر الأخرى بماذا تجيب . لم تكن تطمع فى الزواج من شاب ، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها ، ولكنها لم ترتح إلى «متقدم فى السن» ، هذه وكان تدرج الحديث قد خلطها بأم حميدة فأنست إليها ، واستطاعت أن تقول وهى تضحك لتدارى ارتباكها .

ـ أصوم وأفطر على بصلة !

فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنينا مزعجا ، وازدادت اطمئنانا إلى نفاسة الصفقة التى هى بصدد عقدها ، ثم قالت بخبث :

ـ صدقت يا ست . والحق أن التجارب دلتنى على أن أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج ، ولكم يناسبك رجل فى الثلاثين أو يزيد قليلا .

فتساءلت المرأة فى قلق :

ـ وهل يوافق؟

ـ يوافق ويوافق ! . . أنت سيدة جميلة وغنية !

ـ سلمت من كل سوء !

فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجد والاهتمام :

ـ أقول له سيدة نصف ، ولا ولد لها ولا حماة ، أدب وكمال . صاحبة دكانين بالحمزاوى وبيت ذى طابقين بالمدق .

فابتسمت الست وقالت تصحح لها ما حسبته هفوة :

ـ بل ذى ثلاثة طوابق .

ولكن الأخرى قالت معترضة :

ـ اثنان فحسب، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى إيجاره مدى حياتى!

فقالت ست سنية فى سرور:

ـ لك عيناى يا ست أم حميدة!

ـ سلمت عيناك. ربنا يهيئ ما فيه الخير.

فهزت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت:

ـ يا للعجب!.. جئتك لمجرد الزيارة فانظرى كيف انتهى بنا الحديث؟.. وكيف أغادر فى حكم المتزوجات؟!

فجارتها أم حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضا، وإن راحت تقول لنفسها: «يا مرة احتشمى، أتحسبين أن مكرك يجوز على؟!». ثم قالت:

ـ إرادة ربنا!.. أليس كل شىء بأمره؟!

وعادت الست سنية عفيفى إلى شقتها مسرورة فرحة، بيد أنها حادثت نفسها قائلة: «إيجار شقة مدى الحياة!.. يا لها من امرأة جشعة».

ـ ٣ ـ

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها. كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيروسين. فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة، وقالت بأسف:

ـ واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل!

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف، ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة، وقالت الفتاة بحدة:

ـ قمل؟!.. والنبى ما وجد المشط إلا قملتين اثنتين!

ـ انسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة؟

فقالت بغير مبالاة:

ـ كان مضى على رأسى شهران بلا غسيل .

ثم اشتد ساعدها فى التمشيط وهى تجلس جنب أمها . كانت فى العشرين، متوسطة القامة، رشيقة القوام، نحاسية البشرة، يميل وجهها للطول، فى نقاء ورواء، وأميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان، لهما حور بديع فاتن، ولكنها إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين وحدت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها! وقد كان غضبها دائما مما لا يستهان به حتى فى زقاق المدق نفسه. وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت. قالت لها يوما وهما تتسابان: «لن يلم الله شعثك برجل، فأى رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة!». وكانت تقول فى مرات أخرى: إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب، وسمتها لذلك الخمّسين باسم الرياح المعروفة. ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وإن كانت فى الحقيقة أمها بالتبنى. كانت الأم الحقيقية شريكة لها فى الاتجار بالمفتقة والموغات، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق فى ظروف سيئة، وأخيرا ماتت بين يديها تاركة طفلتها فى سن الرضاع، فتبنتها أم حميدة، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجى فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة، فهى أخته بالرضاعة.

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة، ولما طال الصمت قالت الفتاة:

ـ طالت الزيارة، فيم كنتما تتحدثان؟

فضحكت أمها فى سخرية وتمتمت:

ـ خمنى!

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها:

ـ طلبت رفع الإيجار.

ـ لو فعلت لخرجت محمولة على أيدى رجال الإسعاف، ولكنها طلبت خفضه؟

- هل جنت؟

- أجل جنت، ولكن خمنى . .

فنفخت الفتاة وهى تقول :

- أتعبتنى !

فأرعشت المرأة حاجبيها وقالت وهى تغمز بعينها :

- صاحبتك تروم الزواج !

فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

- الزواج !

- أجل . وتريد شابا . أسفى عليك من شابة عاثرة الحظ لا تجد من يطلب يدها !

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهى تضفر شعرها :

- بل أجد كثيرين، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين أن تدارى فشلك . وماذا بى مما يعيب؟ ولكن كما قلت امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل «باب النجار مخلع» .

فابتسمت أم حميدة قائلة :

- إذا تزوجت الست سنية عفيفى فلا يصح لامرأة أن تيأس . .

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

- لست أجرى وراء الزواج، ولكنه يجرى ورائى أنا، وسأنبذه كثيرا . .

- طبعا ! أميرة بنت أمراء !

فتغاضت الفتاة على سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة :

- أفى هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟

ولم تكن الأم فى الواقع بداخلها خوف على الفتاة من البوار، ولا تشك فى جمالها، ولكنها كانت كثيرا ما تثور بعجبها وغرورها فقالت باستياء :

- لا تسلقى الزقاق بلسانك، إن أهله سادة الدنيا!

- سادة دنياك أنت. كلهم كعدمهم، اللهم إلا واحدا به رمق جعلتموه أخى!

وكانت تعنى حسين كرشة أخاها بالرضاعة، فهال أمها الزمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء:

- كيف تقولين هذا؟ ما جعلناه أخا، وما نملك أن نصنع أخا ولا أختا، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله..

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة:

- ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الآخر؟

فلكمتها أمها فى ظهرها وصاحت بها:

- قاتلك الله..

فغمغمت الفتاة بازدراء:

- زقاق العدم!

- أنت تستحقين موظفا قد الدنيا!

فتساءلت بتحد:

- هل الموظف إله؟

فتنهدت الأم قائلة:

- آه لو تخففين من غلوائك..!

فقلدت لهجة أمها قائلة:

- آه لو تنصفين ولو مرة فى العمر!

- آكلة شاربة ثم لا تشكرين. أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب!.

فقالت حميدة بدهشة:

ـ وهل الجلباب شيء يهون؟! . . ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة؟! ألا ترين أن الأولى بالفتاة التى لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية؟!

ثم امتلأ صوتها أسفا وهى تقول مستدركة:

ـ آه لو رأيت بنات المشغل! آه لو رأيت اليهوديات العاملات! كلهن يرفلن فى الثياب الجميلة. أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب؟!

فقالت الأم باستياء:

ـ أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديا عقلك، وهيهات أن يهدأ لك بال. .

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها، فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة، ثبتتها على مسند الكنبة، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الإعجاب:

ـ آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدين فى هذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التى لا تميز بين التبر والتراب؟!

ثم دلفت من النافذة الوحيدة فى الحجرة التى تطل على الزقاق، ومدت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق، متنقلة به من مكان إلى مكان، قائلة وكأنما تخاطب نفسها فى سخرية:

ـ مرحبا يا زقاق الهنا والسعادة. دمت ودام أهلك الأجلاء. يا لحسن هذا المنظر، ويا لجمال هؤلاء الناس. ماذا أرى؟! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة عينا على الأرغفة وعينا على جعدة زوجها، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها. وهذا المعلم كرشة القهوجى متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم. وعم كامل يغط فى نومه، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب. آه. وهذا عباس الحلو يسرق النظر إلى النافذة فى جمال ودلال، ولعله لا يشك فى أن هذه النظرة

سترمينى عند قدمه أسيرة لهواه، أدركونى يا هوه قبل التلف. أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة، رفع عينيه يا أماه وغضهما، ثم رفعهما ثانية، قلنا الأولى مصادفة، والثانية يا سليم بك؟! رباه هذه نظرة ثالثة! ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟!.. مصادفة كل يوم فى مثل هذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذًا لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت لك أهلا وسهلا ومرحبا. هذا كل شىء، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل؟!.. أوه.. ها هو ذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبقابه..

وهنا قاطعتها أمها فى سخرية:

- ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك!

فلم تلتفت إليها، ورقصت لها عجيزتها وهى تقول:

- يا له من رجل مقتدر، يقول إنه أنفق فى حب السيدة زينب مائة ألف، فهل يبخل بعشرة آلاف؟!

ثم تراجعت فجأة كأنهاه ملت موقفها، وعادت إلى المرآة ملقية إليها نظرا فاحصا، وتنهدت وهى تقول:

- يا خسارتك يا حميدة..

- ٤ -

فى الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل: لا تزوه الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله، بيد أن النشاط يدب فى الأركان منذ الصباح الباكر، يفتتحه سنقر صبى القهوة فيهيىء المقاعد ويشعل الوابور، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجا وأفرادا، ثم يلوح جعدة حاملا خشبة العجين، حتى عم كامل نفسه يشغل فى هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس!. وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معا، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس

والبصل الأخضر والخيار المخلل . وكان مزاجاهما فى الأكل مختلفين، فالحلو سريع يلتهم رغيفه فى دقائق معدودات، أما عم كامل فبطئ يمضغ اللقمة فى أناة حتى يكاد يذيبها فى فمه، وكثيرا ما يقول: إن الطعام المفيد يهضم فى الفم أولا، ولذلك فالحلو ينتهى من طعامه، ثم من احتساء الشاى وتدخين الجوزه، والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل، ولذلك أيضا فلكى يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده! وعم كامل - رغم جسامته وضخامته - لا يعد أكولا وإن كان يلتهم الحلوى بشراهة. وهو حلوانى ماهر، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن إلا فى الطلبات الخاصة التى يوصى عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان الحسينى والمعلم كرشة. وطار فى طلك صيته حتى جاوز المدق إلى الصنادقية والغورية والصاغة. ولكن رزقه على قد عيشته البسيطة دون زيادة، فلم يكن كاذبا حين شكا إلى عباس الحلو أنهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به. وقد قال - ذلك الصباح - مخاطبا الحلو بعد أن فرغا من طعامهما:

- قلت إنك ابتعت لى كفنا، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والدعاء، ولكن ما قولك فى أن تنزل لى عنه الآن . . ؟

فتعجب عباس الحلو الذى كاد ينسى الكفن كما تنسى عادة الأكاذيب، وسأله:

- وماذا تريد أن تفعل به؟؟!

فقال الرجل بصوته الرفيع الذى يحاكى أصوات الغلمان:

- أنتفع بثمنه! . ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان الأقمشة؟

فضحك الحلو وقال:

- أنت رجل ماكر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة. بالأمس شكوت أنك لن تجد ما تكفن به بعد موتك، فلما أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمنه! ولكن هيهات أن تنال ما تريد، لقد ابتعت الكفن لأكرم به جثتك بعد

عمر طويل إن شاء الله . .

فابتسم عم كامل فى ارتباك وقال :

ـ هب أن العمر قد امتد بى حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب، ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالى؟!

ـ وهبك تموت غدا؟! .

فقطب عم كامل وقال :

ـ لا قدر الله!

فقهقه الحلو ضاحكا وقال :

ـ عبثا تحاول أن تثنينى عما اعتزمت . سيبقى الكفن فى حرز حريز حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكة . ثم قال الشاب معاتبا :

ـ يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة! . هل استفدت منك مليما واحدا فى حياتى؟! مطلقا . ذقنك جرداء لا تنبت، وكذلك شاربك . رأسك أصلع . وليس بهذه الدنيا الواسعة التى تدعوها جسمك شعرة واحدة أنتفع بحلقها . سامحك الله . .

فابتسم عم كامل قائلا :

ـ جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله . .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء، فنظرا إلى داخل الزقاق فرأيا المعلمة حسنية الفرانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب، والرجل يتقهقر أمامها لا يملك لها دفعا، وصراخه يعلو حتى طبق الآفاق، فضحك الرجلان وصاح عباس الحلو مخاطبا المرأة :

ـ العفو والرحمة يا معلمة . .

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكيا مستعطفا .

ولبث عباس ضاحكا وهو يقول لعم كامل :

ـ ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتى يذوب شحمه!

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادما من البيت فى سرواله وقميصه وقبعته.

كان ينظر فى ساعة معصمه، تياها فخورا، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمتلئان زهوا. وقد حيا صديقه الحلاق، ومضى إلى الكرسى داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره فى يوم عطلته. وقد نشأ الصديقان معا فى زقاق المدق، كما رأيا نور الدنيا فى بيت واحد، بيت السيد رضوان الحسينى، بيد أن عباس الحلو رأى هذا النور الدنيوى قبل صاحبه بثلاثة أعوام. وكان الحلو فى ذلك الوقت يعيش فى حضانة والديه، قبل أن يعرفه عم كامل ويشاطره شقته بخمسة عشر عاما. وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معا. وآخى بينهما الحب والمودة، وظلا على صداقتهما حتى بعد أن فرق بينهما العمل، فاشتغل عباس صبى حلاق بالسكة الجديدة، وعمل حسين صبيا فى دكان دراجات بالجمالية. وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء، ولكن لعل تباينهما هذا كان من أهم الأسباب التى أبقت على صداقتهما ومودتهما. كان عباس الحلو ـ ولا يزال ـ شخصا وديعا، دمث الأخلاق، طيب القلب، ميالا بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو اللعب السلمى، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومى، مع نفور من اللجاج والشجار، ودراية فى اتقائهما بالابتسامة الحلوة و«الله يسامحك يا عم». وكان يحافظ على صلاته وصومه، ولا تفوته صلاة الجمعة فى سيدنا الحسين. أجل أهمل الآن بعض هذه الفرائض، لا عن استهتار ولكن عن كسل، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان. ولم يكن من النادر أن يتحرش به صاحبه حسين كرشة، ولكنه كان إذا شد صاحبه أرخى، فلم تصله قبضته القاسية قط. وعرف إلى ذلك بالقناعة والرضا، حتى إنه واصل عمله «صبيا» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير إلا منذ خمسة أعوام، ومنذ ذلك

التاريخ وهو يحسب أنه نال أرفع ما يطمح إليه: وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان، وجسمه البدين، وطابع المرح الذى لا يفارقه. أما حسين كرشة فكان من شطار الزقاق، مشتهرا بالنشاط والحذق والجراءة، بل هو معتد أثيم إذا دعا الداعى. وقد اشتغل بادئ أمره فى قهوة أبيه، ولكنهما لم يتفقا، فهجرها وعمل بدكان الدراجات، ولبث بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانية، وبلغت يوميته بها ثلاثين قرشا - نظير ثلاثة قروش فى عمله الأول - غير ما يسميه «أكل العيش يحب خفة اليد» فارتفعت حاله، وامتلأ جيبه، ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود فتمتع بالثياب الجديدة، وغشى المطاعم، وأكثر من أكل اللحوم التى هى فى حسبانه طعام المحظوظين، وارتاد السينمات والملاهى، وعاقر الخمر، ورافق النساء، وربما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدم لهم الطعام والنبيذ والحشيش. وفى نشوة من نشواته - كما يحكى عنه - قال لبعض مدعويه: «فى بلاد الإنجليز يسمون من كان مثلى فى بحبوحج العيش باللارج (Large) ولما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللارج، ثم حرفت فيما بعد إلى حسين كرشة الجراچ!».

أمسك عباس الحلو بالماكينة وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط، يصلح من أطرافها، دون مساس بالشعر المفلفل الذى يكاد يقف من فظاظته وخشونته. ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلما التقى بذلك الصديق القديم. أجل مازالا صديقين، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بقهوة أبيه كما كان يفعل فى الأيام الخالية، مما دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين. ولم يخل الأمر من عاطفة حسد. خامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التى تفصل بينهما، بيد أنه فى حسده - كما هو فى حياته - وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط فى خطأ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء، وكأنه يغبطه ولا يحسده، وربما قال لنفسه معزيا: «سوف تنتهى الحرب يوما، ويعود حسين إلى

الزقاق معدما كما خرج منه».

وجعل حسين كرشة - بثرثرته المعهودة - يحدث صاحبه عن حياة «الأورنس» والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات! وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والإعجاب، وقال:

- قال لى الأونباشى جوليان مرة لا أفترق عن الإنجليز إلا فى اللون!.. وكثيرا ما نصحنى بالاقتصاد، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده فى زهو) الذى يربح النقود فى أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافها فى زمان السلم، ومتى تظن الحرب تنتهى؟! ألا يغرنك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم فى الحرب، ولسوف يحارب هتلر عشرين عاما!. والأونباشى جوليان من المعجبين بشجاعتى، ويثق فى ثقة عمياء، وبفضل هذه الثقة يسرحنى فى تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشوك وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية!.. دنيا!

فتمتم عباس الحلو متفكرا:

- دنيـا!

فألقى حسين على صورته فى المرآة نظرة متفحصة وقال:

- أتدرى أين أذهب الآن؟.. إلى حديقة الحيوان. أو تدرى مع من؟.. مع بنت كالقشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسأنطلق بها هناك إلى أقفاص القرود.

وقهقة عاليا ثم استدرك:

- أراهن على أنك تتساءل: لماذا القرود؟. وهذا طبيعى من إنسان مثلك لم ير إلا قرد القرداتى. فاعلم يا حمار أن القرود فى حديقة الحيوان تعيش جماعات فى أقفاص. وهى كبيرة الشبخ بالإنسان فى صورته وسوء أدبه، تراها تتغازل وتتحاب فى علانية مكشوفة، فإذا سقت الفتاة إلى هنالك تفتحت لى الأبواب!

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله:

ـ دنيا ! .

ـ النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك المرجل :

فضحك الحلو ونظر إلى شعره فى المرآة، وقال بصوت منكسر :

ـ أنا رجل مسكين !

فحدج صورته فى المرآة بنظرة حادة وتساءل متهكما :

ـ وحميدة؟ !

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب، وتمثلت لعينيه صورتها؛ فتورد وجهه، وغمغم وهو لا يدرى :

ـ حميدة . . !

ـ أجل حميدة بنت أم حميدة!

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح فى وجهه الارتباك، وراح الآخر يقول بحدة :

ـ يا لك من رجل خامل معدوم الحياة . . عيناك نائمتان، دكانك نائم، حياتك نوم وخمول، أعيانى إيقاظك يا ميت . أتحسب أن هذه الحياة خليقة بتحقيق آمالك؟ ! هيهات، ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمتك .

فلاح التفكير فى العينين الهادئتين وقال متكدرا بعض الكدر :

ـ الخيرة فيما اختاره الله . .

فقال الشاب ساخرا :

ـ عم كامل، قهوة كرشة، الجوزة، الكومى؟ !

فقال الحلو فى حيرة :

ـ لماذا تهزأ بهذه الحياة؟

ـ أهى حياة حقا؟ . هذا الزقاق لا يحوى إلا موتا . وما دمت فيه فلن تحتاج يوما للدفن . عليك رحمة الله .

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدري ما الآخر قائله :

ـ وماذا تريدنى على أن فعل؟

فصاح به الفتى :

ـ طالما أخبرتك . طالما نصحتك . اخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقيرة . أغلق هذا الدكان . اهجر هذا الزقاق . أرح عينيك من جثة عم كامل . وعليك بالجيش الإنجليزى . الجيش الإنجليزى كنز لا يفنى . هو كنز الحسن البصرى ، ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم ، لقد بعثها ربنا لينتشلنا من وهدة الشقاء والعوز . على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب . ألم أنصحك بالالتحاق بالجيش؟ ومازلت أقول لك إن الفرصة سانحة . حقا هزمت إيطاليا ولكن ألمانيا باقية ، ووراءها اليابان ، وسوف تطول الحرب عشرين عاما . أقول لك للمرة الأخيرة إنه توجد أماكن شاغرة فى التل الكبير . سافر !

واستيقظ خيال الحلو ، واضطرمت عواطفه : حتى وجد صعوبة فى امتلاك عنانه وإتقان عمله . لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنه نتيجة لإلحاحه المتواصل كلما قابله . كان بطبعه قنوعا ، غزوفا عن الحركة ، هيابا لكل جديد ، مبغضا للأسفار ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا ، ولو لبث فيه مدى الحياة لما مله ولا فترحبه له . ولكن طموحه صحا بعد سبات ، وكان كلما دبت فيه الحياة امتزج فى نفسه بصورة حميدة ، أو لعل حميدة هى التى أيقظته وبعثته بعثا جديدا ، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئا واحدا لا يتجزأ . وعلى رغم هذا كله خاف أن يبوح بذات نفسه ، وكأنما أراد أن يفسح لنفسه وقتا للتدبر والتفكير ، فقال متظاهرا بالإحجام والإباء :

ـ السفر ابن كلب !

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به :

ـ أنت ابن ستين كلب . السفر خير من زقاق المدق ، وخير من عم كامل؟ سافر وتوكل على الله . أنت لم تولد بعد . ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ ماذا لبست؟ ماذا رأيت؟ صدقنى إنك لم تولد بعد . .

فقال عباس متأسفا :

ـ من المحزن أنى لم أولد غنيا .

ـ من المحزن أنك لم تولد بنتا ! لو ولدت بنتا لكنت من بنات الدقة القديمة ، حياتك فى البيت وللبيت ، ولا سينما ولا حديقة الحيوان ، حتى ولا الموسكى الذى ترتاده حميدة فى العصارى . .

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباكه ، وآلمه أن ينطق به صاحبه مستهينا ساخرا كأنه لفظ تافه لا يثير مكامن القلوب ، وقال مدافعا عن فتاته :

ـ أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق ، ولا يعيبها أن تروح نفسها بالمشى فى الموسكى .

ـ أجل ولكنها فتاة طموح ما فى ذلك من شك ، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك . .

وعاود قلبه الخفقان العنيف ، والتهب وجهه احمرارا ، وذابت نفسه وجدا وقلقا وانفعالا . . وكان انتهى من حلق رأس الشاب ، فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة ، وفكره لا يستريح من اضطرابه . ثم نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده . وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسى منديله فرجع مسرعا إلى البيت . وجعل يتابعه بعينيه من موقفه ، فلاح لعينيه مرحا نشيطا سعيدا ، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة . «لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك» . صدق حسين بلا ريب ، إنه يعيش عيشة الكفاف ، ولا يكاد يتمخض كدح يومه عن رزق ذلك اليوم ، فإذا أراد أن يبنى عشه فى هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد . إلام يقنع بالأحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون؟ ! «فتاة طموح» هكذا يقول حسين ، وإن كان هو لا يدرى شيئا على وجه التحقيق ، وربما كان حسين بها ، لأنه ـ عباس ـ اعتاد أن يراها بعين الحب الحالمة الخالقة . وإذا كانت فتاته طموحة فلا معدى له عن أن يكون طموحا كذلك . ولعل حسين يحسب غدا ـ وقد ابتسم لهذا الخاطر ـ أنه أيقظه من سباته وخلقه خلقا جديدا ، ولكنه يعلم دون الناس جميعا أنه

لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شيء أن ينزعه من قناعته الوديعة المستسلمة. وشعر عباس فى هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب. ولعله أحس - إحساسا غامضا لا يرتقى لمرتبة الوعى والفكر - بقدرة الحب على الخلق والتعمير، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد. ولذلك خلق الله الإنسان محبا، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة فى رعاية الحب. وقد تساءل الفتى فى وجده وانفعاله لماذا لا يسافر؟ ألم يعش فى هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان؟! فماذا أفاده؟ إنه زقاق لا يعدل بين أهله، ولا يجزيهم على قدر حبهم له. وربما ابتسم لمن يتجهمه وتجهم لمن يبتسم له، فهو يقتر عليه الرزق تقتيرا، ويغدقه على السيد سليم غدقا، وعلى كثب منه تتكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرفها الساحر، فى حين أن راحته لا تقبض إلا على ثمن الرغيف، فليكن سفر، وليتغيرن وجه الحياة.

جرى فكره هذا الشوط البعيد، ولبث واقفا أمام دكانه ينظر إلى عم كامل وقد مضى يغط غطيطا والمذبة فى حجره، ثم سمع وقع أقدام خفيفة آتيا من أعلى الزقاق، فتحول إليه فرأى حسين كرشة عائدا فى خطوات واسعة. واستمر به الانفعال والقلق، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة، حتى حاذاه وأوشك أن يفوته، فوضع يده على كتفيه وقال له بقوة وعزم:

- حسين، أريد أن أحدثك فى أمر هام..

- ٥ -

العصر..

عاد الزقاق رويدا رويدا إلى عالم الظلال: والتفت حميدة فى ملاءتها، ومضت تستمع إلى دقات شبشبها على السلم فى طريقها إلى الخارج. وقطعت الزقاق فى عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أن أعينا أربعا تتبعها

متفحصة ثاقبة، عينى السيد سليم علوان صاحب الوكالة، وعينى عباس الحلو الحلاق. ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رق نعلاه، بيد أنها تلف الملاءة لفة تشى بحسن قوامها الرشيق، وتصور عجيزتها الملمومة أحسن تصوير، وتبرز ثدييها الكاعبين، وتكشف عن نصف ساقيها المدملجتين، ثم تنحسر فى أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزى الفاتن القسمات، وكانت تتعمد ألا تلوى على شىء فتنحدر من الصنادقية إلى الغورية ثم إلى السكة الجديدة فالموسكى.. حتى إذا غابت عن الأعين الثاقبة علت شفتيها ابتسامة، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينيها الجميلتين. هى فتاة مقطوعة النسب، معدمة اليد، ولكنها لم تفقد قط روح الثقة والاطمئنان. ربما كان لحسنها الملحوظ الفضل فى بث هذه الروح القوية فى طواياها، ولكن حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده، كانت بطبعها قوية، لا يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها، وكانت عيناها الجميلتان تنطقان أحيانا بهذا الشعور نطقا يذهب بجمالها فى رأى البعض ويضاعفه فى رأى البعض الآخر. فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف يتلهف على الغلبة والقهر، يتبدى فى حرصها على فتنة الرجال، كما يتبدى فى محاولتها التحكم فى أمها، ويتعرى فى أسوأ مظاهره فيما يشجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك، حتى أبغضنها جميعا، ورمينها بكل سوء. وربما كان من أغرب ما رميت به أنها تبغض الأطفال، وأنها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة، وهذا ما جعل امرأة المعلم كرشة القهوجى - أمها بالرضاعة - تتمنى على الله أن تراها أما ترضع الأطفال فى كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصبحها بالضرب! مضت فى سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية، مرددة الطرف فى معارض المتاجر المتعاقبة. كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية، فتثير فى نفسها الطموح المتلهفة على القوة والسيطرة أحلاما ساحرة، ولذلك تركزت عبادتها للقوة فى حب المال على اعتبار أنه المفتاح السحرى للدنيا، والمسخر لجميع قواها المذخورة. فجل ما كانت تعرفه عن نفسها أنها تحلم بالمال، والمال الذى يأتى

بالثياب وبكل ما تشتهيه الأنفس. وعسى أن تتساءل: أيمكن يا ترى أن تبلغ يوما ما تتمنى؟! لم تكن الحقائق لتغيب عنها، ومع ذلك فهى لا تنسى قصة فتاة من بنات الصنادقية، كانت فقيرة فى الأصل مثلها، ثم أسعفها الحظ بزوج ثرى من المقاولين فانتشلها من وهدتها، ونقلها من حال إلى حال. فماذا يمنع القصة أن تتكرر، والحظ أن يبتسم مرتين فى هذا الحى؟! ليست دون صاحبتها جمالا، والحظ الذى لعب دوره فى حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة. بيد أن هذا الطموح كان يضطرب فى دنيا ضيقة تنتهى عند حدود ميدان الملكة فريدة، لا يدرى عما وراءها شيئا، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ، ولا كم منهم يلقيخيرا وسعدا، وكم منهم يتردد مثلها حائرا ألا يعلم لنفسه مرسى، فعلى كثب من هذه المنطقة رأت صويحباتها من عاملات المشغل قادمات، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها، وسرعان ما سلمن وأخذن فى تافه الأحاديث، وهى تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين ناقدة، ذاهبة نفسها حسرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه. أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عامة عن تقاليدهن الموروثة، واشتغلن بالمحال العامة مقتديات باليهوديات. ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير فى ردح قصير من الزمن، شبعن بعد جوع، وكسين بعد عرى، وامتلأن بعد هزال، ومضين علي أثر اليهوديات فى العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة، ومنهن من يرطن بكلمات، ولا يتور عن تأبط الأذرع والتخبط فى الشوارع الغرامية، تعلمن شيئا واقتحمن الحياة. أما هى فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص. وها هى تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها، غابطة حياتهن المرهفة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة. كانت تضاحكهن فى صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها، ثم لا تتردد عن نهشهن ولو على سبيل الدعابة الساخرة ـ لأقل هفوة، فهذه فستانهاه قصير معدوم الحياء، وهذه ذوقها سقيم، وتلك عيناها تزوغان من التحديق فى الرجال، والرابعة كأنها

نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل؟ . . كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها فى يومها الطويل المفعم تبرما وعراكا، ولذلك قالت يوما لأمها وهى تتنهد:

- حياة اليهوديات هى الحياة حقا!

فانزعجت أمها وقالت:

- إنك من نبع أبالسة ودمى برىء منك.

فقالت الفتاة إمعانا فى إغاظتها:

- ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام؟!

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة:

- رحم الله أباك بائع الدوم بمرجوش. .

سارت وسط صويحباتها تياهة بجمالها، مدرعة بلسانها الطويل، يلذها أن الأعين تمر بهن من الكرام وتستقر عليها دونهن. ولما انتصف الموسكى أو كاد لاحت منها التفاتة إلى الطريق فرأت عباس الحلو يسير متأخرا عنهن قليلا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة، وتساءلت عما دعاه إلى ترك دكانه فى هذه الساعة على غير عادة. هل تبعها عمدا؟ . . ألم يعد يقنع برسائل النظر؟ . . كان على فقره متأنقا كأكثرية أهل فنه، فلم يضايقها ظهوره. وقالت لنفسها إن أية واحدة من صاحباتها لا تطمع فى زوج خير منه، وكانت تجد نحوه شعوراً غريبا معقدا، فهو من ناحية الشاب الوحيد فى الزقاق الذى يصلح لها زوجا، وهى من ناحية أخرى تحلم بزوج على مثال المقاول الغنى الذى حظيت به جارتها فى الصنادقية فهى لا تحبه ولا تتمناه، وفى الوقت نفسه لا تقطعه، ولعلها تسرها نظراته المشوقة! . . وكان من عادتها أن توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها عامدا، وأنه ينوى أن يخرج عن صمته أخيراً. ولم تخطئ ظنونها فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتى انحدر نحوها من الطوار، فى خطوات مضطربة ووجه ينطق بالانفعال، وقاربها حتى قال

بصوت متهدج :

ـ مساء الخير يا حميدة . .

فالتفتت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مباغتة ، ثم قطبت وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه . ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن العتاب :

ـ مساء الخير يا حميدة .

وخافت إن هى لازمت الصمت مع هذا الخطو الحثيث أن ينتهيا إلى الميدان المأهول قبل أن يقول ما يريد ، وكانت راغبة فى سماعه ، فقالت فى لهجة تنطق بالاستياء :

ـ يا للعار ! جار وتفعل كالغريب !

فقال عباس بلهفة :

ـ بل جار حقا ، ولا أفعل كالغريب ، أحرام على الجار أن يتكلم؟

فقالت عابسة :

ـ نعم ، الجار يحمى جارته ، لا أن يهاجمها . .

فقال الشاب بصدق حار :

ـ أنا رجل أعلم واجبات الجار ، ولم يخطر ببالى قط أن أهاجمك ـ لا سمح الله ـ بيد أنى أريد أن أحدثك ، ولا عيب أن يحدث الجار جارته .

ـ كيف تقول هذا؟ ! . . أليس من العيب أن تتعرض لى فى الطريق ، وتعرضنى للفضيحة . .

فهاله قولها ، وقال بأسف :

ـ الفضيحة؟ . . معاذ الله يا حميدة . صدرى طاهر ، ولا يكن لك إلا الطهر وحياة الحسين ، وستعلمين أن كل شىء سينتهى بما أمر به الله لا بالفضيحة ، فأصغى إلى قليلا ، أريد أن أحدثك عن أمر هام . ميلى بنا إلى شارع الأزهار بعيدا عن أعين الذين يعرفوننا .

فقالت باستياء متصنع :

- بعيدا عن أعين الناس؟ ! . . ما شاء الله ! . . دمت من جار طيب حقا !

وكان قد تشجع بمنازعتها إياه الحديث فقال بحرارة :

- ما ذنب الجار؟ ! . . أيموت قبل أن يبوح بذات نفسه !

فقالت بسخرية :

- ما أطهر كلامك . .

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول :

- طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة . ميلى بنا إلى شارع الأزهر . أريد أن أقول لك كلمة هامة . ينبغى أن تصغى إلى . أنت تعلمين ولا شك بما أريد أن أقوله . ألا تعلمين؟ . . ألا تشعرين؟ . . قلب المؤمن دليله .

فقالت كالغاضبة :

- لقد جاوزت حدك . كلا . . كلا . . دعنى . .

- حميدة . . أنا أريد أن . . أنا أريدك . .

- يا للعار . دعنى وإلا فضحتنى أمام الخلق .

وكانا قد بلغا ميدان الحسين ، فمرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحثت خطاها على عجل ، ثم انعطفت إلى الغوورية وهى تبتسم ابتسامة خفيفة . كانت تعلم ما يريد قوله كما قال ، ولم تنس أنه الفتى الوحيد الصالح لها فى الزقاق ، وقد قرأت فى عينيه البارزتين آى الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها فى الماضى القريب ، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجحود؟ . . أما حالته المالية التى تعلم عنها الشىء الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكنا ، وأما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة والخضوع ، مما يجعله خليقا بأن يرتاح إليه فؤادها المغرم بالسيطرة ، بيد أنها وجدت نحوه - رغم ذلك - نفورا لم تدر له سببا . ماذا تريد إذا؟ . . ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب؟ ! . . لم تهتد لجواب بطبيعة الحال ، وقد عزت

نفورها منه إلى فقره! . . والظاهر أن حبها السيطرة كان تابعا لحبها العراك لا العكس، فلم تهش للمسألة، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال. وكان قلبها ما يزال فى غفوته لم يستبن بعد رغائبه، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقا.

ونكص عباس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين، فتراجع مفعم الفؤاد خيبة وحسرة، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس. قال لنفسه وهو يسير متمهلا غافلا عما حوله: إنها بادلته الكلام طويلا. ولو قصدت صده ونبذه ما منعها ولا أعيتها الحيلة، فهى لا تكرهه، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعا، ولعله الحياء الذى جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار. فكان أبعد الناس عن اليأس، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل وتوثب للكرة التالية. وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل. كان محبا صادقا ملتهب العاطفة، وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كلى. ولذة لا حد لها، وحب لا يبيد. أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعا بالنساء عامة، ولكنه كان كالحمام يحلق فى السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع فى النهاية على برجه ملبيا صفير صاحبه، فهى دون النساء جميعا أمله المنشود. أجل لم تعد مخاطرته خائبة، وتفتحت له أكمام الأحلام عن زهر الآمال، فعاد منتشيا مسرورا بحبه وبشبابه. ولما عرج إلى الصنادقية صادف الشيخ درويش قادما من ناحية الحسين، فالتقيا عند مطلع الزقاق، وأقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبركا، ولكن الشيخ أشار نحوه بسبابته محذرا، وحملق فى وجهه بعينيه الذابلتين وراء نظارته الذهبية وقال:

- لا تمش بلا طربوش! . . احذر أن تعرى رأسك فى مثل هذا الجو، فى مثل هذه الدنيا، فمخ الفتى يتبخر ويطير، وهذا أمر معروف فى المأساة ومعناه بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها T r a g e d y .

- ٦ -

وكان المعلم كرشة قد شغل بأمر هام، ومن النادر أن ينصرم عام من

حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص، بيد أنه كان رجلا مسلوب الإرادة، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعا. ومع ذلك كان على خلال الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء، لا لأن تجارته غير نافقة، ولكن لأنه كان مبذرا - فى غير بيته - يبعثر ما يربحه، وينثر المال بلا حساب، جاريا وراء شهواته، خصوصا هذا الدواء الوبيل.

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبئ سنقر عن طيته، مرتديا عباءته السوداء، متوكئا على عصاه العجراء، ينقل على مهل خطواته الثقيلة! . . ولا تكاد تدل عيناه المظلمتان المختفيان تقريبا وراء جفنيه الغليظتين على أنه يحسن رؤية طريقه، وكان قلبه يخفق! . . والقلب يخفق ولو شارف صاحبه الخمسين، ومن عجب أن المعلم كرشة قد عاش عمره فى أحضان الحياة الشاذة، حتى خال لطول تمرغه فى ترابها أنها الحياة الطبيعية. هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه. بل إنه ليظلم الحكومة فى تعقبها لأمثاله، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثارا للازدراء والاحتقار، فيقول عن الحكومة: «إنها تحلل الخمر التى حرمها الله، وتحرم الحشيش الذى أباحه! . . وترعى الحانات الناشرة للسموم، فى حين تكبس (الغرز) وهى طب النفوس والعقول». وربما هز رأسه آسفا وقال: «ماله الحشيش»! . . «راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدر للنسل!». وأما شهوته الأخرى فيقول بقحته المعهودة: «لكم دينكم ولى دين!». ولكن إيلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كل مطلع هوى جديد. وقد سار متمهلا فى الغوورية ومستسلما لخواطره، يتساءل والأمل ملء فؤاده: «ماذا يا ترى وراءك أيها المساء؟». وعلى رغم انهماكه فى خواطره كان يحس بالدكاكين على الصفين إحساسا غامضا، ويرد بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه. وكان يسىء الظن بهذه التحيات وأمثالها، ولا يدرى إن كانت لمحض السلام أم أن وراءها من الغمز واللمز. فالناس لا

يحريحون ولا يستريحون، ويتلقفون المثالب بأفواه نهمة جشعة. ولطالما قالوا فيه وأعادوا، فماذا أفادهم التشهير؟.. لا شيء!.. وكأنه ولع بتديهم فراح يجهز بما كان يسره، وهكذا مضى فى سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلى الأزهر، فاشتد خفقان قلبه وتناسى تحيات الناس التى أثارت سوء ظنه، وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شرير. وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلية، وجاز عتبته، دكان صغير يجلس فى صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير، ويستند إلى أحد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع. ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره، وتلقاه بابتسامة البائع اللبق. وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة، واستقرت العينان على الشاب، ثم حيا برقة. ورد الشاب التحية فى لطف، وقد أدرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة فى ثلاثة أيام متتابعات. وقد تساءل: لماذا لا يبتاع ما يريد مرة واحدة؟!

وقال المعلم:

ـ أرنى ما عندك من جوارب..

فأحصر الشاب أنواعا منها وبسطها على «طاولة» المحل، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشاب، والشاب لا يخفى أمره عليه، وقد دارى ابتسامة كادت ترتسم على ثغره. وتعمد أن يطيل الفحص والتقصى، ثم قال للشاب بصوت منخفض:

ـ لا تؤاخذنى يا بنى فبصرى ضعيف، هلا اخترت لى لونا مناسبا بذوقك الجميل.

وسكت لحظات يتفرس فى وجهه، ثم أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته المتدلية:

ـ كوجهك الجميل..

فأراه الشاب الجميل نوعا متجاهلا إطراءه، فاستدرك الرجل قائلا:

ـ لف لى ستة..

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب، ثم قال:

ـ الأفضل أن تلف لى اثنى عشر.. أنا رجل لا ينقصنى المال والحمد لله!!

ولف الشاب له ما أراد صامتا، ثم غمغم وهو يناوله اللفيفة:

ـ مبارك..

فابتسم المعلم كرشة، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آلية قصيرة يرافقها اضطراب خفيف فى جفنيه، وقال بخبث:

ـ شكرا لك يا بنى (ثم بصوت خفيض) الحمد لله!

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلا كما دخله. واتجه نحو شارع الأزهر، ثم عبره مهرولا إلى الناحية الأخرى، ووقف لصق شجرة فى مقابل الدكان مستظلا بالظلمة الآخذة فى الانتشار. وقف يدا متوكئة على العصا ويدا قابضة على اللفيفة، وعيناه لا تتحولان عن الدكان من بعيد. كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد شبك ذراعيه على صدره، فجعل ينظر نحوه، لا يكاد يرى منه إلا صورة غامضة المعالم، ولكن ذاكرته وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر الكليل. وراح يقول لنفسه: «أدرك المراد بلا ريب!». ثم ذكر كيف كان رقيقا لطيفا مؤدبا. ورجعت أذناه صوته وهو يغمغم: «مبارك» فأثلج صدره وتنهد من الأعماق. لبث فى مكانه سويعة مضطرما بالقلق والتوتر، حتى رأى الدكان يغلق أبوابه، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذى اتجه صوب الصاغة، والشاب الذى سار نحو شارع الأزهر. وابتعد المعلم عند الشجرة رويدا رويدا، وسار فى الاتجاه الذى يتسمته الشاب. فرآه هذا بعد أن عبر ثلثى الطريق ولكنه لم يبد اهتماما، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال برقة:

ـ مساء الخير يا بنى.

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم:

ـ مساء الخير يا سيدى.

فسأله بمحض الرغبة فى مجاذبته الحديث :

ـ أغلقت الدكان؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتثاقل كأنما يدعوه إلى التريث، ولكنه ثابر على مشيته وهو يقول :

ـ أجل يا سيدى . .

فاضطر الرجل إلى مسايرته، فسارا معا على الطوار والمعلم لا يحول عنه رأسه، ثم قال :

ـ ساعات عملك طويلة، كان الله فى عونك .

فنفخ الشاب قائلا :

ـ ما الحيلة؟ . . أكل العيش يحب التعب . . !

فسر المعلم بإقبال الفتى على محادثه، واستبشر خيرا برقته وقال :

ـ رزقك الله بتعبك يا بنى . .

ـ أشكر لك يا سيدى .

فقال الرجل بحماسة :

ـ تعب كلها الحياة حقا، ولكن من النادر جدًا أن ينال التعب الجزاء الذى يستحقه، فما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا .

فشد هذا الكلام على وتر حساس فى قلب الفتى وقال بتبرم :

ـ صدقت يا سيدى، ما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا .

ـ الصبر مفتاح الفرج . أجل ما أكثر المظلومين، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين . ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رحماء كذلك .

فتساءل الفتى :

ـ أين هؤلاء الرحماء؟

وكاد يجيبه : «ها أنذا واحد منهم»، ولكنه أمسك عن ذلك، وقال

بلهجة العاتب :

ـ لا تكن متشائما يا بنى فأمة محمد بخير (ثم غير لهجته قائلا)، علام تسرع؟ . . أمستعجل أنت؟ !

ـ ينبغى أن أذهب إلى البيت لأغير ملابسى .

فسأله باهتمام :

ـ وبعد ذلك؟

ـ أنطلق للقهوة .

ـ أية قهوة؟

ـ قهوة رمضان .

فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لمعت أسنانه الذهبية فى الظلمة، وتساءل فى إغراء :

ـ لماذا لا تشرف قهوتنا؟

ـ أية قهوة يا سيدى؟

فاخشوشن صوت المعلم وهو يقول :

ـ قهوة كرشة بالمدق، محسوبك المعلم كرشة !

فقال الفتى بامتنان :

ـ تشرفنا يا معلم، هذه قهوة ذائعة الصيت .

فسر المعلم، وسأله بلهجة تشى بالرجاء :

ـ أتأتى؟

ـ إن شاء الله . .

فقال المعلم كمن نفد صبره :

ـ كل شىء بمشيئة الله . ولكن أتنوى الحضور حقا أم تقول ذلك تملصا منى؟

فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال :

ـ بل أنوى الحضور حقا .

ـ الليلة إذًا !

ولما لم ينبس الفتى بكلمة ، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طربا :

ـ لابد . .

فغمغم الشاب :

ـ بإذن الله . . !

فتنهد الرجل بصوت مسموع ثم سأله :

ـ أين تقيم ؟

ـ عطفة الوكالة .

ـ نحن جيران تقريبا . . متزوج ؟

ـ كلا . . مع أهلى . .

فقال برقة :

ـ أنت ابن ناس طيبين كما يبدو لى ، الإناء الطيب ينضح ماء طيبا . وينبغى أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام . إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملا بسيطا فى دكان .

فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل ، وتساءل الشاب فى خبث :

ـ وهل لمثلى أن يطمع فى أكثر من هذا ؟ !

فقال المعلم كرشة باستهانة :

ـ هل ضاقت «بنا» الحيل ! . . ألم يكن جميع الكبار صغارا !

ـ بلى كانوا ، ولكن ليس من المحتوم أن ينقلب الصغير كبيرا .

فأردف المعلم يتم كلام الفتى :

ـ إلا إذا صادفه التوفيق ! . . فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا فيه على أنه

توفيق عظيم. أنتظرك الليلة؟!

فتردد الفتى قليلا، ثم قال مبتسما:

- لا يأبى الكرامة إلا لئيم!

وتصافحا عند بوابة المتولى، ثم رجع المعلم يخبط فى الظلماء، صحا الرجل الداخل وسرى فى صدره دفء السرور، ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التى يغط فيها إلا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة، ومر فى طريقه بالدكان المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق، وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت دكاكينه. وكانت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة. وكان جو القهوة - على خلاف الجو البارد فى الخارج - دفئا يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج «النصبة»، وقد تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويتحسون الشاى والقهوة، والراديو يذيع ما فى جوفه فلا يلقى إلا الإعراض والإهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صما، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصباح، واتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن يقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به، ولكنهم أبوا عليه ذلك وأنكروا غرضه، وقال له الدكتور البوشى:

- لا تفرط فى كسوة الآخرة. إن الإنسان ليعيش كثيرا فى دنياه عاريا، أما عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها عاريا مهما كان فقره.

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالرفض والسخرية، حتى كف الرجل يائسا. وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان ما اعتزم من العمل فى الجيش البريطانى، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم، وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه، وتمنوا له النجاح والثراء. وكان السيد رضوان الحسينى منهمكا فى حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والارشاد، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول:

- .... فلا تقل مللت! الملل كفر. الملل مرض يعتور الايمان وهل معناه إلا الضيق بالحياة!.. ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى، فكيف لمؤمن

أن يملها أو يضيق بها! . . ستقول ضقت بكيت وكيت، فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هذه؟ . . أليس من الله ذى الجلال؟ . . فعالج الأمور بالحسنى، ولا تتمرد على صنع الخالق. لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها، بيد أن مرارة النفس الأمارة بالسوء تفسد الطعوم الشهية. صدقنى إن للألم غبطته ولليأس لذته وللموت عظته، فكل شىء جميل وكل شىء لذيذ! . . كيف نضجر وللسماء هذه الزرقة، وللأرض هذه الخضرة، وللورد هذا ا لشذا، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان. كيف نضجر وفى الدنيا من نحبهم، ومن نعجب بهم، ومن يحبوننا، ومن يعجبون بنا. استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت . .

وحسا حسوة من قدح القرفة، ثم أردف وكأنه يعبر عن خلجات ضميره:

ـ أما المصائب فلنصمد لها بالحب، وسنقهرها به. الحب أشفى علاج. وفى مطاوى المصائب تكمن السعادة كفصوص الماس فى بطون المناجم الصخرية، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب.

كان وجهه الأبيض الوردى يفيض بشرا ونورا، تحيط به لحيته الصهباء إحاطة الهالة بالقمر. وكان كل شىء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلقا مضطربا. وكان نور عينيه صافيا نقيا ينطق بالإيمان والخير والحب والترفع عن الأغراض. ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق فى دراسته الأزهرية، وإنه آيس منم خلود الدنيا حين ثكل الأبناء، ففزعت نفسه إلى تعويض خسرانها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود! . . ولكن كم من المصابين مثله من سلك سبيله، وكم منهم من سقط فريسة الجنون، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين؟! . . ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك فى إخلاصه، كان مؤمنا صادقا، ومحبا صادقا، وجوادا صادقا، ومن عجب أن يكون هذا الرجل ـ الذى طار صيته فى الخير والحب والجود كل مطار ـ حازما

حاسما وعلى فظاظة وحرص فى بيته! . . ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيقى فى هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذى يذعن لإرادته، ألا وهو زوجه! . . وإنه يشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها. ولكن ينبغى ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا لسعادتها هى نفسها قبل كل شىء. على أن زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه، ولولا الجروح التى تركها الأبناء تذكارا خالدا فى قلبها، لعدت نفسها امرأة سعيدة، فخورا بزوجها وحياتها.

أما المعلم كرشة فكان حاضرا غائبا، لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة، وعانى مرارة الانتظار فى صمت كئيب. وكلما مرت دقائق لوى عنقه واشرأب به نحو مطلع الزقاق، ثم يعود إلى صندوق الماركات متصبرا متجلدا قائلا لنفسه: «سيأتى حتما، سيأتى كما أتى إخوان له من قبل». وتمثل له وجهه، ثم نظر إلى الكرسى القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئن إليه، لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد أمثال هذا الشاب إلى قهوته تسترا أو حياء، ثم افتضح أمره، وذاعت فضيحته، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهارا. وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسى ما يبقى حديثا فاضحا تتناقله الألسن، ويتلقفه بشغف أمثال الدكتور بوشى وأم حميدة، ولكنه لم يعبأ شيئا. وما تكاد النار تخمد إلى حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرمها ضراما، وكأنه وجد أخيرا فى الجهر لذة فلهج بها. وهكذا جلس قلقا لا تعرف السكينة سبيلا إلى نفسه الملوثة، كأنه يجلس على مشواة، يكاد ينبرى عنقه من كثرة ليه، حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال للحلو فى خبث:

ـ هذه علامات الساعة!

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة، وأنشد يقول:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع إن داعى الصبابة أسمعا

آه يا ست. الحب يساوى الملايين. . أنفقت فى حبك يا ست مائة ألف جنيه، وإنه لقدر زهيد.

* * *

وأخيرا رأى الدكتور بوشى المعلم كرشة يحدق باهتمام شديد فى مطلع الزقاق، رآه يستوى جالسا وقد ابتسمت أساريره، فنظر إلى مدخل القهوة مترقبا، وما لبث أن طالعه وجه الشاب، وقد ألقى على السمار نظرة المتردد من عينيه الساجيتين.

ـ ٧ ـ

تقع الفرن فيما يلى قهوة كرشة، لصق بيت الست سنية عفيفى. بناء مربع على وجه التقريب، غير منتظم الأضلاع، تحتل الفرن جانبه الأيسر، وتشغل الرفوف جدرانه: وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبا الدار: المعلمة حسنية وزوجها جعدة. وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن. وفى الجدار المواجه للمدخل يرى باب خشبى قصير يفتح على خرابة، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة، إذ ليس بها إلا كوة فى الجدار المواجه للمدخل تطل على فناء بيت قديم. وعلى بعد ذراع من الكوة، وعلى رف ممتد، مصباح يشتعل، يلقى على المكان ضوءا خفيفا يفضح أرضه المتربة المغطاة بأنواع لا يحصيها العد من القاذورات المتنوعة، كأنها مزبلة. أما الرف الذى يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة، كأنه رف صيدلى لولا قذارته النادرة. وعلى الأرض ـ تحت الكوة مباشرة ـ كان يوجد شىء مكوم لا يفترق عن أرض المكان قذارة ولونا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق ـ على رغم كل شىء ـ فى لقب

إنسان؟ . . ذلك هو زيطة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة . وحسبه أن يرى مرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبدا، لبساطته المتناهية، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود، سواد فوقه سواد، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان . ولم يكن زيطة - على ذلك - زنجيا، بل إنه مصرى أسمر اللون فى الأصل، ولكن القذارة الملبدة بعرق العمر كونت على جثته طبقة سوداء . كذلك جلبابه لم يكن فى البدء أسود، ولكن السواد مصير كل شىء فى هذه الخرابة . وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذى يعيش فيه، فلا يزور ولا يزار، لا نفع فيه لأحد ولا نفع فى أحد له، اللهم إلا الدكتور بوشى، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم . وأما صناعته فمعروفة لدى الجميع، وهى صناعة العاهات، ليست صناعة تعطيه الحق فى لقب دكتور وإن لم يتخذه إكراما لبوشى . كان يصنع العاهات، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد . يقصده الراغبون فى احتراف الشحاذة، فبفنه العجيب - الذى يحشد أدواته على الرف - يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات . يجيئونه صحاحا ويغادرونه عميانا وكسحانا وأحدابا وقسعانا ومبتورى الأذرع أو الرجل . وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته، وعلى رأسها جميعا اشتغاله عهدا طويلا فى سرك متجول، ولاتصاله بأوساط الشحاذين - اتصالا يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين الشحاذين - فكر فى تطبيق فن «الماكياج» الذى تلفنه فى السرك على بعض الشحاذين، فى بادئ الأمر على سبيل الهواية، ثم على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش . ومن مشاق عمله أنه يبدأ فى الليل، أو عند منتصف الليل على الأصح، ولكنها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة، أما فى أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخن، أو يتسلى بالتجسس على الفران والفرانة، ولكم كان يلذه أن يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء، حتى إذا أتى الليل رآهما وقد شملهما الصفاء وقد أقبلت المعلمة على زوجها القرد

تمازحه وتباسطه السمر . وكان زيطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح وجهه! وفضلا عن ذلك كله كان يجسده على ما حباه الله به من زوج «كاملة الجسم» أو على حد تعبيره «امرأة بقرى!» . وكان كثيرا ما يقول عنها إنها فى دنيا النساء تقابل عم كامل فى دنيا الرجال! . وكان من أهم الأسباب التى دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته المنتنة ، فلم يكن الماء يعرف سبيلا إلى وجهه أو جسده . وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام! وبادل الناس مقتا بمقت عن طيب خاطر ، فكان يرقص طربا إذا قرع مسمعيه صوات على ميت ، ويقول وكأنه يخاطب الميت : «جاء دورك لتذوق التراب الذى يؤذيك لونه ورائحته على جسدى!» . وربما قطع وقت فراغه الطويل فى تخيل صنوف التعذيب التى يتمناها للناس واجدا فى ذلك لذة لا تعادلها لذة ، يتصور جعدة الفران هدفا لعشرات الفؤوس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلها ثقوب! . . أو يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجىء ودمه يجرى نحو الصنادقية . . أو يتمثل له السيد رضوان الحسينى تجره الأيدى من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهبة ثم يستخرجونه منها زكيبة من الفحم . . أو يرى المعلم كرشة مطروحا تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه فى مقطف قذر يبيعونه لهواة الكلاب . . وغير هذا كثير مما يراه دون ما يستحق الناس . وكان إذا باشر عمله وأخذ فى صنع العاهة لطالبها ، اشتد عليه فى قسوة مقصودة مستخفيا وراء سر المهنة ، حتى إذا ندت التأوهات عن فريسته لمعت عيناه المخيفتان بنور جنونى . ومع ذلك كان الشحاذون أحب البشر إلى نفسه ، وتمنى كثيرا لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض .

هكذا جلس زيطة غارقا فى أخيلته يترقب وقت العمل ، وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائما ، نفخ المصباح فانطفأ وساد ظلام ثقيل . ثم تلمس طريقه إلى الباب وفتحه فى هدوء بالغ ، ثم اخترق الفرن إلى الزقاق . والتقى فى سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة ، وكثيرا ما يلتقيان فى منتصف الليالى دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولذلك كان للشيخ حظ موفور فى محكمة التفتيش التى ينصبها زيطة فى خياله للبشر . وانعطف

صانع العاهات إلى سيدنا الحسين فى خطوات قصيرة وئيدة، وكان يقترب فى سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكة - كانت بعض قيود الإضاءة ما تزال موجودة - فلا يراه المقبل فى الطريق حتى يصطدم بعينيه البراقتين يلمعان فى الظلام لمعان القطعة المعدنية فى حزام الشرطى. وفى الطريق، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور، فهو لا يشقه إلا حين يكاد ينقطع إلا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة. وشق ميدان الحسين منعطفا صوب الباب الأخضر فبلغ القبو القديم، وجعل يردد عينيه المخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه، فملأه الارتياح. ارتياح السيد إلى قوته، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة. ودنا من أقرب الشحاذين إليه، وكان جالسا القرفصاء معتمدا رأسه على ركبتيه ويغط غطيطا، فوقف حياله لحظة متفرسا كأنما يسير نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم، ثم ركله فى رأسه الأشعث، فانتبه الرجل من نومه - غير مذعور - كأنما أيقظته أنامل ناعمة، ورفع رأسه متثاقلا وهو يحك جنبيه وظهره بأظافره، فوقع بصره على الشبح المشرف عليه، وحملق فيه لحظة، فعرفه - على عماه - لأول وهلة. وتنهد الرجل فند عن صدره صوت كالوحوحة، ثم دس يده فى صدره واستخرج مليما غمز به كف الرجل. وانتقل زيطة إلى من يليه، ثم إلى من يليهما، حتى إذا فرغ من جناح القبو جميعا اتجه نحو الجناح الآخر، ثم مضى إلى الأزقة والحوارى المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذ واحد. ولم يكن إكبابه على تحصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العاهات التى صنعها، وربما سأل هذا أو ذاك «كيف عماك يا فلان؟» أو «كيف كساحك يا فلان؟» فيجيبونه «الحمد لله.. الحمد لله». ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع فى طريقه رغيفا وحلاوة طحينية وتبغا ورجع إلى الزقاق. كان الصمت شاملا يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسينى حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة.. وجاز الرجل عتبة الفرن فى هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين، ودفع بابه الخشبى فى حذر ورده فى سكون.. لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها، ولم تكن خالية. كان

المصباح مشتعلا، وعلى الأرض تحته يجلس رجال ثلاثة. ودلف الرجل بينهم فى هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه، وعاينهم بعينية البراقتين فعرف منهم الدكتور بوشى. ووقفوا له جميعا، وقال له الدكتور بوشى بعد أن حياه تحية طيبة:

ـ هاك رجلين مسكينين يستشفعان بى إليك. .

فتظاهر زيطة بعدم المبالاة، وقال متظاهرا بالملل:

ـ فى مثل هذه الساعة يا دكتور؟!

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له:

ـ الليل ستار وربنا أمر بالستر!

فقال زيطة وهو ينفخ:

ـ ولكنى متعب الآن. .!

فقال البوشى برجاء:

ـ لا رددت لى يدا.

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له، فتظاهر بإذعان مرغما، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالهما متفرسا فى أناة وهدوء، ثم ثبتت عيناه على أطولهما، كان عملاقا قويا فدهش زيطة لمنظره وسأله:

ـ أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان، فلماذا تروم احترام الشحاذة؟!

ـ فقال الرجل بصوت منكسر:

ـ لم أفلح فى عمل أبدا، حاولت أعمالا كثيرة، حتى الشحاذة نفسها، ولكن لم يقدر لى التوفيق، حظى أسود، وعقلى وسخ لا أفهم شيئا ولا أتقن شيئا. .

فقال ربطة بحقد:

ـ كان ينبغى إذًا أن تولد غنيا. .

ولم يفطن الرجل لمرماه، وراح يستعطفه بتصنع البكاء قائلا بصوت

كالخوار:

ـ أخفقت فى كل شىء، حتى الشحاذة لم تجذب لى رحيما واحدا. كل الناس يقولون أنت قوى ويجب أن تشتغل، هذا إذا لم يشتمونى وينهرونى، لا أدرى لماذا!

فقال زيطة وهو يدلك رأسه:

ـ يا سلام. حتى هذا لا تدركه.

ـ الله يخليك ويجبر بخاطرك..

وكان زيطة لا يكف عن فحصه متفكرا، فقال بحزم وهو يغمز أعضاءه:

ـ أنت قوى حقا. أعضاؤك سليمة. إنى أعجب ماذا تأكل؟

ـ الخبز إذا وجد ولا شىء غيره.

ـ هذا جسم شيطانى بلا ريب. ترى ماذا تكون لو أكلت كما يأكل حيوانات الله التى يؤثرها بخيره ونعمته؟!

فقال الرجل ببساطة:

ـ لا أدرى..

طبعا طبعا. أنت لا تدرى شيئا، فهما هذا، وخير ما فعلت، فلو كنت تدرى لانقلبت واحدا منا. اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه أعضائك.. ولاح الانقباض فى الوجه الثور، وأوشك أن يتباكى كرة أخرى لولا أن بادرة زيطة قائلا:

ـ عسير أن أكسر لك رجلا أو ذراعا، ومهما صنعت بك فلن تستثير عطف أحد. إن البغال أمثالك يثيرون الحنق أينما يحلون. ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشى ينتظر هذه العبارة بصبر ناقد) فهناك طرق شتى، أعلمك فن العته مثلا. وأنت لا ينقصك منه شىء ذو بال، أجل العته، وأحفظك بعضا من مدائح الرسول..

فتهلل وجه الرجل ودعا له كثيرا، حتى قاطعه زيطة متسائلا:

ـ لماذا لم تشتغل قطاع طرق؟

فقال الرجل بانكسار :

ـ أنا رجل طيب مسكين، لا أقصد إنسانا بسوء، وأحب آل البيت .

فقال زيطة باحتقار :

ـ أتبدؤنى أنا بهذه البوليتيكا . . ؟

ـ ثم التفت إلى الرجل الآخر، كان قصيرا هزيلا، فقال زيطة بارتياح :

ـ استعداد طيب . .

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتنا شاكرا :

ـ الحمد لله كثيرا . .

خلقت لتكون أعمى مقعدا .

فقال الرجل بسرور :

ـ هذا من فضل ربى .

فهز زيطة رأسه وقال ببطء :

ـ العملية دقيقة وخطيرة . ودعنى أسألك عن أسوأ الاحتمالات، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو إهمال فماذا تفعل؟

فتردد الرجل لحظة، ثم قال بغير مبالاة :

ـ نعمة من الله! وهل أفدت من بصرى شيئا حتى آسف على ضياعه؟

فقال زيطة بارتياح :

ـ بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقا . .

ـ بإذن الله يا سيدى . ستكون روحى ملك يديك، سأنزل لك عن نصف ما يجود به المحسنون . .

ـ هذا كلام لا يجوز على، حسبى مليمين غير أجر العملية، وإنى أعرف كيف استخلص حقى إذا سولت لك نفسك المماطلة . .

وهنا قال البوشى محذرا :

ـ لم تذكر نصيبك من الخبز .

فاستدرك زيطة قائلا :

ـ طبعا . طبعا . . والآن فلنشرع فى العمل ، العملية شاقة ، ولسوف نمتحن قوة احتمالك ، فاكتم الألم ما استطعت إلى ذلك سبيلا . .

وتصور ما سوف يكابده هذا الجسم الهزيل من هرس يديه القاسيتين ، فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتسامة شيطانية . .

ـ ٨ ـ

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع فى الزقاق طول النهار . عمال كثيرون لا يكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطرد فى تتابع متواصل ، وعدد من سيارات العمل الضخمة يجعجع أزيزها فيطبق على الصنادقية وما يتاخمها من الغورية والأزهر ، وتيار زاخر من الزبائن والعملاء . هى وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس من شك فى أن انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث فى سوقها أثرا ملحوظا ، ولكن الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها . وفضلا عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيد سليم بالاتجار بمواد لم يكن يلقى إليها بالا كالشاى ، فغامر فى السوق السوداء ، وربح أرباحا طائلة . وكان السيد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم فى نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخلى التى تحدق به المخازن ، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، وييسر له مراقبة العمال والحمالين والزبائن جميعا . لذلك كله فضل هذا المركز على الانفراد فى حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر الحق ـ على حد تعبيره ـ ينبغى أن يكون مفتوح العينين دائما » . وكان الرجل فى

الواقع من النماذج العملية الموفقة، خبيرا فى مهنته، قادرا على النهوض بأعبائها. ولم يكن من حديثى النعمة الذين أنجبتهم الحرب، لأنه على حد تعبيره أيضا «تاجر ابن تاجر»، بيد أنه لم يكن فى البدء معدودا من الأغنياء، ثم خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتى أتخمتها بالثراء. على أن الرجل لم يخل من الهموم، وبحسبه أن يناضل فى الميدان وحده بلا معين ولا نصير. أجل كان ما يتمتع به من صحة جيدة وحيوية فائضة خليقا بأن يهون عليه همومه، ولكن لم يكن بد من التفكير فى الغد، القريب أن البعيد، إذا انصرم العمر أو كاد، وافتقدت الوكالة من يديرها. فمن المؤسف حقا أن أحدا من أبنائه الثلاثة لم يقع له فى خاطر أن يتقدم لمعاونة أبيه فى عمله، وكانوا جميعا سواء فى الإعراض عن التجارة، وضاعت محاولاته فى ثنيهم عن إعراضهم كلها سدى، فلم يجد مناصا ـ على بلوغه الخمسين ـ من النهوض بالأمر كله. وليس من شك فى أنه كان المسئول عن هذا الختام المرهق، فقد كان علىرغم عقليته التجارية ـ جوادا كريما أو كان كذلك على الأقل فى بيته وبين أهله، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسه أثاث وكثرة خدم وحشم. وفضلا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف بالحلمية، فترعرع الأبناء فى وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار وأوساطهم، وسط يضمر بلا ريب نوعا من الاحتقار للمهن الحرة جميعا، فتعلقوا بمثل عليا جديدة. بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته. وحين جد الجد تمردوا على نصحه وأبوا الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون فخا لهم، وشقوا سبيلهم إلى الحقوق والطب، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العينى. ومع ذلك كانت الحياة سعيدة، وقد بدت آثارها الطيبة فى جسمه البدين المتين، ووجهه الممتلئ المورد، وحيويته الشابة المتوثبة سعادة منشؤها أن كل شىء فى موضعه المأمول، تجارة رابحة، صحة جيدة، أسرة سعيدة. أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمأن إليها. وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع، تزوجن جميعا وبارك

الله فى زيجاتهن . فبدا كل شيء باسما منبسطا لولا ما ينتابه بين الحين والحين من التفكير فى مصير الوكالة والتجارة . وبكروا الأيام تنبه الأبناء إلى متاعب الأب، ولكنهم قدروها من ناحية أخرى، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يوما من يد والدهم، أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرن ماذا يصنعون . وكان أن قترح عليه أحدهم - محمد سليم علوان القاضى أن يصفى تجارته ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذلك النضال الطويل . بيد أن ا لسيد لم يغب عنه حقيقةمخاوفه، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه، فقال له «أتريد أن ترثنى حيا!» ودهمه قوله هذا وهاله، لأنه وإخواته يحبون أباهم حبا صادقا، فلم يعد أحد منهم إلى طرق هذا الموضوع الخطير . ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد فراحوا يقولون - واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة - إن شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال فى المصارف . وفطن إلى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذى يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرع عنها، فهو يعلم حق العلم أن التجارة التى تدر المال بلا حساب قد تبتلعه أيضا فى ساعة نحس واحدة، وأن التارج الذى يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا حقيق إذا وقعت هذه الساعة - وخاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلا أو زوجه - أن يخرج من شدته ببعض المال، وعسى أن يكون مالا كثيرا، لا صفر اليدين . وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة، وانتهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدا . أجل إنه يعلم ذلك كله، ويعلم أن أبناءه على حق فيما يريدون، ولعل التفكير فى هذا الذى يريدون لم يكن جديدا عليه، ولكن هل تسمح ظروف الحرب الشروع فى مثل هذا العمل؟! كلا، هذا بين بلا ريب . وإذا فليؤجل إلى حين، وليطوفى نفسه حتى يتيسر تحقيقه . ولم يكد يحسب أنه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه القاضى أيضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية . قال له : كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببكوات وباشوات دونك مالا وجاها ومقاما .

وسره هذا الإطراء . وكان فى الحق - وعلى خلاف التجار الحصفاء -

مغرما بالجاه والجلال، ولكنه تساءل فى سذاجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة، وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل، وتحمسوا له جميعا وإن اختلفوا فى الوسيلة. فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلى فيها بدلوه! حقا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئا - فيما عدا التجارة - من أمور الدنيا، ولا تكاد تسموا آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلا، فكان مثله يضرع خاشعا إلى ضريح الحسين، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به. كان بإنجاز معدة قوية وجبة زاهية. بيد أن السياسة لا تحتاج فى كثير من الأحايين إلى أكثر من هذا، وقد مضى يفكر فى الأمر تفكيرا قويا، لولا أن اعتراضه ابنه المحامى - عارف سليم علوان - فقال له محذرا:

- السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا. ستجد نفسك ملزما بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك، وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافا من أموالك دون جدوى ثمنا لكرسى غير مضمون، وهل البرلمان فى بلادنا إلا كمريض بالقلب تهدده السكته فى أية لحظة! ثم أى حزب تختار؟ إذا اخترت حزبا غير الوفد أضع مكانتك فى الوسط الذى تعمل فيه، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقى باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح.

وتأثر السيد يقول ابنه، وكان يثق فى أبنائه «المتعلمين» ثقة كبيرة، وزاده انحيازا إلى طرح السياسة جانبا جهله التام بشئونها، وبرودة حيالها، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول.

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة. ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفورا طبيعيا من البذل والعطاء، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف، لأنه فى الواقع كان كرما لنفسه وبيته، على أنه لم يقطع بالرفض، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة، وما زال يطمع

فيها ويريدها . وقد أدرك أنها تقتضيه قدرا من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه ، فما عسى أن يصنع ؟ لم يبت برأى قاطع ، وإن قال لأبنائه «كلا» بيد أنه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القائمة بلا فض كإدارة الوكالة وشراء العقار ، تاركا أمر الجميع للمستقبل وللظروف .

* * *

ومهما يكن من أمر هذه الهموم فهى ليست بالخطر الذى ينغص صفو الحياة وخصوصا حياة رجل يستغرقه العمل نهارا ، والغريزة ليلا ، والحق أنه إذا شغله العمل لم يعد يفكر فى شىء سواه ، وقد جلس إلى مكتبه مركزا انتباهه كله فى كلام سمسار يهودى ، مستجمعا يقظته ، مستحضرا حذره ، يعجب لرقة محدثه ولطفه ، حتي ليحسبه الجاهل صديقا ودودا ، وهو فى الحقيقة نمر يتوثب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن ، والويل لمن يتمكن منه . وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، أو أنه - على حد تعبيره - شيطان مفيد ، وكان يساومه بصفقة شاى مضمونة الربح غزيرته ، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير ! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاى أن يعرض عليه شراء عقار صالح - وكان على علم برغبته فى الشراء - ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع فى ذلك إلى ما بعد الحرب ، وأبى أن يصغى إليه ، فغادر الرجل الوكالة قانعا بصفقة واحدة . وجاء غير هذا الخواجا آخرون . وواصل السيد العمل بما عرف عنه من مقدرة وهمة . وعند منتصف النهار نهض للغداء ، وكان يتناول غداءه فى حجرة أنيقة أعد بها فراشا للمقبل . وكان غداؤه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك . ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين . وفى أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة ، فيسود السكون الزقاق جميعا ، وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعا . هى طعام ووصفة فى آن واحد ، وقد برع فى تهيئتها أحد عماله المقربين ، فظلت حقيقتها سرا بينهما لولا أنه لا يؤمن على سر فى زقاق المدق . هى صينية فريك محشو بالحمام ،

ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب، يلتهمها فى الغداء، ويحتسى بعدها شابا مرتين أو ثلاث مرات، قدحا كل ساعتين، فتحدث مفعولها ليلا، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين فى بهجة خالصة! . وقد ظلت الصينية سرا لا يدريه إلا الرجلان والمعلمة حسنية القراءة. وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غذاء خالص، فيقول البعض: «بالهنا والشفا» ويغمغم البعض: «يطفحا سما بإذن الله!». ثم لعب الطمع يوما بقلب المعلمة حسنية، فسولت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة فى زوجها جعدة الفران، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص، ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاص نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلا، ولاحظ بسهولة ما طرأ من تغير على لياليه، وعاد باللائمة بادئ الأمر على العامل الذى يهيىء الوصفة. فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك فى الفرانة، واكتشف السرقة بغير صعوبة، فدعا الفرانة ووبخها، وعدل عن إرسال الصينية إلى فرنها، مستبدلا بها الفرن الأفرنجى بالسكة الجديدة. وبدأ السر ينكشف ويذيع فعلمت به أم حميدة، وكان فى ذلك الكفاية كل الكفاية، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعا، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز. وأدرك السيد غاضبا أن سره قد افتضح، ولكنه لم يعبأ ذلك طويلا! أجل. قطع أكثر عمره فى الزقاق، ولكنه لم يكن يوما من أهله، ولم يعمل لواحد منهم حسابا، ولولا السيد رضوان الحسينى والشيخ درويش لما عنى برفع يده تحية. وكادت الصينية تصبح فى وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعا، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد. فجربها المعلم كرشة والدكتور بوشى، حتى السيد رضوان الحسينى ذاقها بعد أن تأكد أنها لا تحوى بمادة يحرمها الشرع الحنيف! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر، والواقع أنه كان يضطرب من الحياة فى مضطرب ضيق نهاره نهب للوكالة، وليله خال مما يتسلى به أمثاله من الناس، فلا قهوة ولا ناد ولا ملهى، ولا شىء مطلقا إلا زوجه، ولذلك تفنن فى مسراته الزوجية تفننا شذيها عن جادة الاعتدال.

* * *

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى، وارتدى قفطانه وجبته، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاى الثانى مهيأ، فاحتساه يتلذذ وهو يتجشأ جشآت مجعجعة يدوي صداها فى الفناء الداخلى، وأقبل على عمله بنفس الهمة التى استقبله بها فى الصباح ولكنه كان يبدو فى فترات وكأن قلقا ينتابه. كان يتلفت نحو الزقاق، وكان ينظر فى ساعته الذهبية الضخمة، وكان يعبث بأنفه على غير شعور منه. وعندما ارتفع ضوء ا الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق، أدار مقعده اللولبى وجعل وجهه للطريق. ومرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق. ثم أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع شبشب على أحجار الطريق المنحدر، ثم مرت حميدة أمام باب الوكالة فى ثوانى معدودات، وفتل شاربه بعناية، ودار بكرسيه إلى المكتب وقد لاح فى عينيه السرور، وإن وجد شعورا بعدم الارتياح!. من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق. ولم يكن يتاح له رؤيتها فى غير هذا الوقت إلا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها فى أوبقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما يريح أعصابه بالمشى. كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونا لمنزلته وكرامته، فهو السيد سليم، وهى فتاة مسكينة، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين المتطفلة. وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكرا. أجل هى مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم واأسفاه، والنفس أمارة بالسوء!. مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزى ونظرة عينيها وقدها الممشوق، كل أولئك مزايا تستهين حقا بفوارق الطبقات!. وما جدوي المكابرة؟ إنه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح، والجسم الذى يقطر إغراء، وهذه العجيزة الأنيقة التى تزرى بورع الشيوخ. إنها أنفس من وارد الهند جميعا. ولقد عرفها منذ كانت صبية صغيرة تتردد على الوكالة لابتياع ما تحتاجه أمها من الحناء ومواد المفتقة والمغات. رأى ثدييها وهما نبقتان ثم وهما دومتان، حتى استوتا رمانتين. وعاين عجيزتها وهى أساس أملس لم ينهض عليه بناء، ثم وهى تكور رقيق يتمطى به النضج، وأخيرا

وهى كرة تنضح أناقة وأنوثة. وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتى أفرخ فى النهاية رغبة عارمة. إنه يعلم ذلك، ولم يعد يحاول إنكاره. ولطالما قال لنفسه: «ليتها كانت أرملة كالست سنية عفيفى!» لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجا. أما وهى عذراء فينبغى أن يطيل التفكير فى أمره. وتساءل كما اعتاد أن يتساءل: ماذا يروم؟ وذكر وهو لا يدرى زوجه وأسرته. كانت زوجه امرأة فاضلة، تتحلى بكل ما يحب الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة فى شئون البيت، وكانت على شبابها مليحة ولودا. فهو لا يأخذ عليها نقيصة واحدة، وفضلا عن ذلك كله كانت من أسرة كريمة تتفوق عليه كثيرا فى الأصل والمحتد. وهو يقر بفضلها جميعا، ويضمر لها ودا صادقا، ولا يضايقه إلا أنها استوفت شبابها وحيويتها، فقصرت عن مجاراته، وعجزت عن احتماله، فبدا بالقياس إليها - وبسبب حيويته الخارقة - شابا نهما لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع!. والحق أنه لا يدرى إن كان ذلك ما علقه بحميدة، أم أن هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم!. ومهما يكن الأمر فقد أحس رغبة لا تقاوم إلى دم جديد!، وقال لنفسه صراحة: «مالى أحرم على نفسى ما أحل الله لها!». على أنه كان رجلا محترما، حريصا جدا على أن يقر له كل إنسان بالاحترام، ويكربه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه. كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كل حساب، وكان يقول مع القائلين: «كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس». وإنه ليأكل صينية الفريك، أما حميدة..! رباه! لو كانت من أسرة كريمة ما تردد لحظة فى طلب يدها. ولكن كيف تصير حميدة ضرة للسيدة عفت!؟ وكيف تصبح أم حميدة الخاطبة حماته كما كانت يوما المرحومة ألفت هانم؟! وعلى أى وجه تكون حميدة امرأة أب لمحمد سليم القاضى وعارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم؟!. وهناك أمور أخرى - لا تقل عن هذه خطورة - ينبغى تقديرها حق قدرها، هنالك بيت جديد لابد - فى هذه الحالة - أن يتهيأ، ونفقات جديدة ربما ضاعفت من نفقاته القديمة، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتماسكة، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء. وفى سبيل أى شىء كل هذه

المتاعب؟ . . ميل رجل - بل زوج وأب - فى الخمسين لفتاة فى العشرين! لم يغب عنه شىء من هذا، لأنه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تتصل بالمال وأحوال المعيشة، ومضى يراجع نفسه حائرا مترددا لا يقر له قرار. وباتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلقة فى حياته، وانتظمتها سلسلة مشاكله التى لم تفض كإدارة الوكالة ومستقبلها، وشراء العقار وتشييد العمارات، ورتبة البكوية، بيد أنها كانت أشد إلحاحا وأبعث شجنا.

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومد له حبل التفكير، أما إذا خطرت حميدة أمام عينيه، أو لاحت لهما فى النافذة، فلم يكن يفكر إلا فى أمر واحد . .